

مجلة ربع سنوية – العدد الثاني والثلاثون – يناير ٢٠١٨

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية





SPecial Projects
إدارة المشروعات الخاصة

الفِهرِس

المشرف العام
مُصْطَفى الفِقي
مدير مكتبة الإسكندرية

رئيس التحرير
خَالِد عَزَب

سكرتير التحرير
سُوزَان عَابِد

المراجعة والتصحيح اللغوي
رَانْيـَا يُونُس

الإخراج الفني
هَاني صَابِر

التصميم الجرافيكي
آمَـال عِزَّت

الإسكندرية، يناير ٢٠١٨





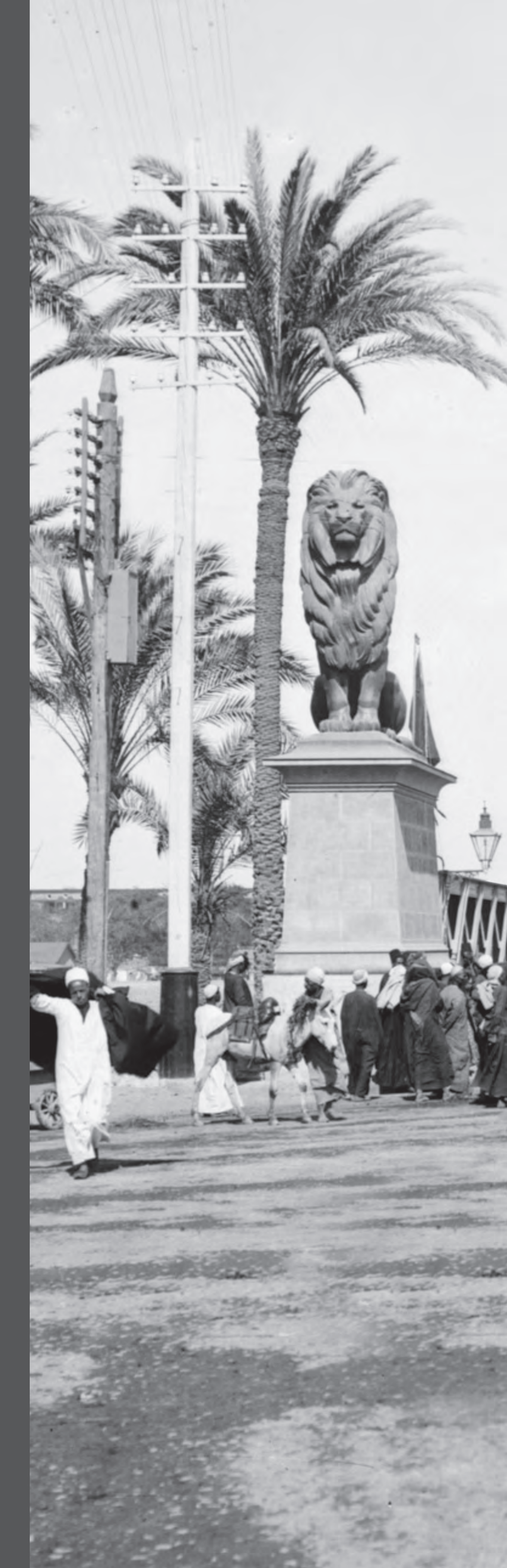


تقديم

نحن شعب يستهويه الماضي، لكن هذا الماضي به غيوم كثيرة تجعلنا لا نستطيع قراءته بدقة، من هنا تعد ذاكرة مصر مجلة كاشفة لهذا الماضي بدقائقه نسعى إلى سبر أغواره، وكشف ملامحه. لذلك نسعى الآن إلى تأريخ القرى والمدن وتأريخ العائلات.

هكذا نسعى إلى دعم التاريخ الوطني والباحثين العاملين في هذا المجال، فالمؤرخون في وطننا خاصة الشباب منهم يحتاجون إلى فرص، وهذا ما حرصت عليه منذ أن توليت مسئولية مكتبة الإسكندرية. أدعو الجميع أن تكون أيديهم في أيدينا؛ لكي نهل معًا على التاريخ الوطني، علمًا أنني حاليًّا أدعم مجلة ذاكرة مصر، وسوف يتم إتاحتها للمكتبات والجامعات والمدارس مجانًا.

الدكتور مصطفى الفقي
مدير مكتبة الإسكندرية



العمارنة

عاصمة التوحيد في العالم القديم

أحمد مصطفى عبد العزيز

منظر يمثل الملك إخناتون يتعبد .

الموقع والتسمية

تقع العمارنة على بعد ١٠ كيلومترات من مدينة ملوي الحالية بمحافظة المنيا على الجانب الشرقي من النيل، وتمتد على مساحة ٢٥ كيلو مترًا من الشيخ سعيد شمالاً حتى الحوطا جنوبًا، وهي منطقة محاطة بسلاسل الجبال من ثلاث جهات شرقًا وشمالاً وجنوبًا، ويحدها من الغرب نهر النيل. وتشمل حاليًّا الحاج قنديل وتل العمارنة والحوطا، وقد عرفت قديمًا باسم آخت آتون 3xt itn أي أفق آتون. وحديثًا تُعرف بتل العمارنة نسبة إلى قبائل بني عمران التي عاشت في المكان.

وقد حدد الملك أمنحتب الرابع حدود مدينته بحوالي ١٤ لوحة عرفت فيما بعد بلوحات الحدود، والتي سجل عليها الملك النص التأسيسي للعمارنة وحدودها. وذكر فيها أنه لن يغادر تلك المدينة حتى وفاته، تلك التي انتقل إليها في العام الرابع من حكمه؛ حيث قرر نقل دعوته الدينية إلى مكان جديد لم يُعبد فيه أي إله من قبل، وأيضًا محاولة الابتعاد عن سطوة وقوة كهنة آمون المتواجدين في طيبة التي نقل منها العاصمة إلى مدينته الجديدة (آخت آتون).

و لم تتغير العاصمة فقط بل قام الملك بتغيير أسمائه المرتبطة بالإله القديم والعاصمة القديمة فغير اسمه النبتي من عظيم الملك في الكرنك إلى عظيم الملك في آفق آتون، واسم التتويج من أمنحتب الرابع والذي يعني آمون مسرور إلى إخناتون أي النافع أو المحب لآتون، وأيضًا زوجته نفرتيتي التي غيرت اسمها من نفرت إيتى أي الجميلة المقبلة إلى نفر نفرو آتون أي الجميلة بجمال آتون. حيث تزوجها وهو في عمر اثني عشر عامًا وكان عمرها يبلغ ثلاثة عشر عامًا وأنجب منها ست بنات، وهي لم تكن أخته؛ حيث كانت العادة المتبعة في ذلك الوقت زواج الملك من أكبر أخواته البنات، ولكن إخناتون خالف تلك العادة وتزوج من ابنة أحد كبار النبلاء.



منظر يمثل الملك إخناتون والملكة نفرتيتي وهي ممسكة بإحدى بناتها وأخرى خلفها، وتظهر الأسرة وهي جالسة في الشرفة الملكية داخل القصر، وفي يد الملك قلادة يستعد لتقديمها تكريمًا لآي كأحد رجال البلاط المخلصين (مقبرة آي بتل العمارنة).

الدعوة الدينية للمك إخناتون

في بداية حكم الملك إخناتون في العمارنة اعترف بالآلهة الأخرى ولكنه كان يريد في قرارة نفسه التخلص من بقية الديانات والمعتقدات التي كان يراها تحمل كثيرًا من الخرافات. كان آتون بالنسبة له معنىً روحيًّا؛ حيث إنه لا يمكن لمسه ولكنه أب وأم لهذه البشرية وموجود في كل مكان، فهو أيضًا يمكن أن يظهر عن طريق ضوء الشمس؛ حيث كان الملك دائمًا ما يظهر داخل مقابر النبلاء في تل العمارنة وهو يتعبد للآله آتون. وكانت صوره بأشعة الشمس التي تهبط على الملك وأسرته وتنتهي بالأيدي رمز العطايا من الإله للملك. ولكن ليست تلك الشمس بالإله بل القوة التي جعلت الشمس تظهر وهي بالنسبة لهذا الكون تبعث الحياة وتقوي كل شيء وتنميه. ولم يكن لآتون أية هيئة آدمية ولا يمكن أن تُنحت له التماثيل أو يُصوَّر.

وقد أخلص الملك إخلاصًا شديدًا في دعوته الدينية والميل إلى التوحيد، ويتضح ذلك في المجهودات التي قام بها الملك من أجل نشر الديانة الجديدة في كل أقاليم مصر. وكان بذلك يهدف إلى القضاء على تعدد الآلهة. أيضًا لم يبدِ الملك أي اهتمام بالسياسة الخارجية بل على العكس أهملها تمامًا؛ حيث كان اهتمامه منصبًّا على نشر الدين الجديد والذي كان يعتقد أنه من خلاله يمكنه ربط الشعوب؛ عن طريق السلام بدلاً من الحرب.

واشتهر إخناتون في التاريخ العالمي بأنه «الملك الذي غير الديانة» أو «الملك الذي فصل الديانة عن كل أمور الحكم»؛ حيث أدى اهتمامه الشديد بالدعوة الدينية، وعدم اهتمامه بالسياسة الخارجية إلى ضياع أغلب ممتلكات مصر في الخارج؛ حيث كانت مصر في عهده تشمل سوريا في الشمال وتشمل الحبشة في الجنوب. فاستغل الحيثيون (المملكة المعادية لمصر في سوريا) انشغاله بالدعوة الدينية وقادوا ضده التحالفات، التي



نتج عنها استعادة ملك قادش لسهل سوريا الشمالية، واستولى ملك عامور على السواحل الفينيقية. وقد عرفنا ذلك من خلال خطابات العمارنة وهي عبارة عن لوحات صغيرة من الطين المحروق ومغطاة بالكتابة المسمارية؛ وهي الكتابة المستخدمة في ذلك الحين في سوريا وكانت تلك الخطابات عبارة عن المراسلات المتبادلة بين إخناتون وملوك وأمراء سوريا وفلسطين الموالين لمصر. و لم تستمر دعوته الدينية كثيرًا؛ حيث استمرت حوالي ١٢عامًا ثم انهارت تلك الدعوة وربما يرجع ذلك لعدة أسباب، منها:

أولاً: وفاة الملك إخناتون عن عمر يناهز ٢٩عامًا؛ حيث كان يعتبر الرابط الوحيد أو حلقة الوصل بين البشر والإله، وأيضًا الكاهن الأكبر والأعظم لآتون الذي ينزل عليه العطايا ويقوم الملك بتوزيعها على العامة، لذلك بعد وفاته لم تستمر الحياة في العمارنة سوى لثلاث سنوات حكم فيها الملك سمنخ كارع، والملك توت عنخ آتون، الذي غير اسمه لتوت عنخ آمون بعد نقله العاصمة إلى طيبة والعودة مرة أخرى إلى عبادة آمون.

ثانيًا: قوة وسطوة كهنة آمون؛ حيث يعتقد الكثيرون أنه في بداية الأمر كان المقصود من الثورة الدينية القضاء على تلك السطوة والسيطرة عن طريق غلق معابدهم وتفريق كهنتهم، وأيضًا العمل على محو اسم آمون من كل الخانات الملكية التي تحمل أسماء الملوك السابقين.

كل ما سبق أثار حفيظة هؤلاء الكهنة الذين حاولوا جاهدين القضاء على تلك الدعوة ونجحوا في ذلك بالفعل في عهد الملك توت عنخ آمون.

أهم آثار المدينة

تحتوي المدينة على مجموعة من المقابر وصل عددها إلى ست وعشرين مقبرة نُحتت في الصخر. أحد تلك المقابر كان مخصصًا لدفن العائلة الملكَية، وأخذت نفس تصميم المقابر في وادي الملوك؛ ممر منحدر به ثلاثة ممرات متفرعة منه، و لم يُدفن فيها سوى الأميرة ماكت آتون؛ ابنة الملك إخناتون والتي توفيت أثناء فترة حكمه. أما بقية المقابر الخمسة وعشرون فخصصت لأفراد الطبقة الحاكمة والنبلاء في عهد الملك إخناتون، وانقسمت إلى ست مقابر في الجانب الشمالي من المدينة وتسع عشرة مقبرة في الجانب الجنوبي.

وأغلب تلك المقابر تتكون من فناء ثم بهو كبير نحتت أعمدته في الصخر ثم مقصورة في نهايتها مشكاة بها تمثال لصاحب

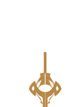


منظر يمثل أسرة الملك إخناتون.

المقبرة. وتشابهت بشكل كبير الموضوعات التي صورت على جدران تلك المقابر؛ حيث كان أهمها زيارة الملك والملكة للمعبد الآتوني، وأيضًا منظر الملك والملكة وبناتهما وهم في وضع التعبد للإله آتون داخل معبده. ودائمًا ما صور صاحب المقبرة وهو محمول على الأعناق من العامة، ويكرم من الملك والملكة اللذين كانا يجلسان في الشرفة الملكية داخل القصر.

وتتميز النقوش والرسوم التي زُيِّنَت بها جدران تلك المقابر بالإسراف في الواقعية حتى قاربت أشكال الكاريكاتير واتخذت من بروز ملامح الوجه وهبوط البشرة وبدانة الفخذين مظهرًا عامًا لجميع الشخصيات التي صورت داخل المقابر. كما تحرر الفنان أيضًا من القيود في تصوير بعض الموضوعات التي تخص الملك وأسرته؛ حيث صور إخناتون في إحدى المقابر وهو يقبل زوجته نفرتيتي، كما صورت نفرتيتي في إحدى المقابر وهي ترضع إحدى بناتها وهي موضوعات كانت نادرة التصوير على جدارن المقابر خاصة الملكية.

أما عن أهم ما يميز تلك المقابر؛ فهي كونها غير مكتملة الإنشاء؛ حيث البعض منها نحت فيه الفناء والصالة الأمامية فقط، والبعض الآخر نحت فيه الفناء والصالة الأمامية وحجرة الدفن والمشكاة التي بها تمثال صاحب المقبرة ولكن دون اكتمال للنقوش الخاصة بتلك المقبرة. ويرجع ذلك لسبب غاية في الأهمية قد يجهله الكثيرون من غير الدراسين؛ وهو أن تلك المقابر لم يدفن أصحابها فيها؛ وذلك بسبب مغادرتهم المدينة بعد انتهاء حقبة العمارنة والعودة للأقصر، فكان من الطبيعي ألا يستكمل العمل فيها وأن تترك مهملة بما وصل العمل بها أثناء فترة الحكم في المدينة، ولأن أصحابها أصبحت لهم مقابر أخرى في الأقصر. أما عن أهم أفراد طبقة النبلاء في العمارنة وأصحاب تلك المقابر، نذكر منهم:



- **ماحو**: رئيس الشرطة في عهد الملك إخناتون ومقبرته تحتوي على نقشين غاية في الأهمية والروعة، النقش الأول للملك والملكة تجلس على قدمه وهو يقبلها، والنقش الثاني لشيء يدعى البشعة؛ وهي عبارة عن وعاء ضخم تتصاعد منه ألسنة اللهب، ويظهر العديد من الأفراد يعتقد أنهم خارجون عن القانون يصطفون ويمر كل واحد منهم تلو الآخر ليضع لسانه على طرف ألسنة اللهب المتصاعده منها، وذلك بعد القسم؛ حيث إنه في حالة كذبه سيحرق لسانه بتلك النيران أما إن كان صادقًا فلن يحدث له شيء. ويربط أحد المؤرخين بين ذلك المنظر والقول بحدوث مؤامرة على حياة الملك في آخر فترات حكمه، وأن ماحو قبض على المتآمرين، وأنهم عوقبوا نتيجة تلك المحاولة، وذلك بعد أخذ الاعترافات منهم بتلك الطريقة التي ما يزال بعض البدو يستخدمونها حتى الآن.

- **آي**: أحد كبار النبلاء في المدينة وأيضًا والد الملكة نفرتيتي زوجه الملك إخناتون، مقبرته كمثيلاتها من مقابر المدينة غير مكتملة و لم يُدفن فيها صاحبها والذي دفن في مقبرة أخرى في وادي الملوك ولكن دفن بها كملك للبلاد؛ حيث إنه استطاع الوصول للحكم فيما بعد. وترجع أهمية تلك المقبرة إلى وجود النشيد الآتوني على جدارن أحد مقابرها (ظهورك في أفق السماء جميل.. يا آتون الحي ومصدر الحياة.. عندما تستيقظ في الأفق الشرقي للسماء.. فإنك تملأ أرجاء البلاد بجمالك.. ورغم تعاليك فإن أشعتك تشرق على الأرض). وقد قارنه الكثيرون بالمزمور ١٠٤ للنبي داود في الكتاب المقدس طبقًا للعقيدة اليهودية.

- **حويا**: وهو المشرف على الحريم الملكي وعلى بيت المال، وتُعَدُّ مقبرته من أهم المقابر في تل العمارنة؛ حيث صور فيها وهو يكرم من الملك والملكة تقديرًا لوفائه وإخلاصه في خدمتهما.

- **مري رع**: الكاهن الأكبر وكبير الرائيين للمعبود آتـون وهو منصب ديني رفيع، ومقبرته أحد أجمل المقابر في المدينة، لوجود أغلب النقوش والرسوم الخاصة بالملك والملكة بحالتها تقريبًا.



منظر يمثل آي وزوجته في شكل تعبد، وأعلاهما النشيد الآتوني (مقبرة آي المجموعة الجنوبية بتل العمارنة).



منظر يمثل موكب الملك إخناتون وزوجته الملكة نفرتيتي أثناء تحركهما بالعجلات الحربية من القصر متجهين إلى المعبد الآتوني، يتقدم الموكب مجموعة من الحراس الملكيين وخلف الموكب مجموعة من خدم القصر(مقبرة مري رع الأول بتل العمارنة).

منظر يمثل الملك والملكة وهما يقدمان القرابين للإله آتون، وأمامهما مائدة كبيرة من القرابين يعلوها قرص الشمس الذي تتدلى منه الأشعة التي تنتهي بالأيدي رمز الإله آتون (مقبرة مري رع الأول بتل العمارنة).



منظر يمثل فرقة من الموسيقيين العميان داخل القصر الملكي (مقبرة مري رع الأول بتل العمارنة).

المقبرة الملكية في العمارنة

تقع على طريق وعر بين مجموعة المقابر الشمالية والجنوبية في تل العمارنة؛ حيث تقع على بعد ١٤كيلو مترًا من قرية تل العمارنة. وقد شيد إخناتون مقبرته على محور واحد؛ ربما لتواجه جميع أجزائها الشمس عند شروقها وفقًا لعقيدته؛ حيث تتعامد الشمس على حجرة الدفن الرئيسية داخل المقبرة يوم ٢٣ فبراير من كل عام وهو تاريخ إنشاء المدينة. وربما دفن الملك فيها بصفة مؤقتة ثم نقل بعد ذلك إلى وادي الملوك بطيبة، ولكن المؤكد أن هذه المقبرة كانت المدفن الوحيد والدائم لابنته الأميرة «مكت–آتون». وتتكون المقبرة من سلم من عشرين درجة، يتوسطه ممر منحدر لنزول التابوت، يؤدي هذا السلم إلى باب وممر منحدر آخر، في منتصف هذا الممر إلى اليمين يتفرع ممر آخر يؤدي إلى غرفة لم يكتمل العمل بها. الممر الرئيسي ينتهي عند سلم آخر، إلى اليمين منه مدخل يؤدي إلى ثلاث غرف؛ اثنتان منها تزينها الرسوم والكتابات، يحتمل أن تكونا قد استخدمتا كمقبرة للأميرة «مكت– آتون».

أيضًا احتوت المدينة على قصرين أطلالهما باقية حتى الآن؛ وهما:

القصر الجنوبي

وهو خاص بالملك إخناتون، ويقع بالقرب من معبد آتون الكبير، ومشيد بالطوب اللبن باستثناء المدخل والأعمدة والحمامات؛ حيث تم بناؤها من الحجر. وكذلك جدران وأرضيات هذا القصر مغطاة بالجص المزين بمناظر جميلة تمثل الطبيعة من طيور وأشجار وأنهار. ويحتفظ المتحف المصري بجزء من أرضية القصر.

القصر الشمالي

يعتقد أنه تم بناؤه من أجل إحدى بنات إخناتون؛ وهي الأميرة «مريت آمون». والقصر مشيد بالطوب اللبن، ويضم قاعة للاستقبال وحمامًا للسباحة، وإسطبلاً للخيول، وبعض الحجرات للخدم.



المعبد الآتوني الكبير

كان هناك أكثر من معبد لآتون في المدينة – العمارنة – ولكن أهمها ما يعرف بالمعبد الآتوني الكبير، والذي شيده الملك إخناتون للإله آتون، وهو المعبد الرئيسي بالمدينة، وأكبرها؛ حيث وصل طوله إلى كيلومتر تقريبًا من الشرق إلى الغرب و٢٥٠ مترًا تقريبًا من الشمال إلى الجنوب. وتميز المعبد بتصميمه المختلف عن معابد الدولة الحديثة فهو أقرب إلى معابد الشمس في الأسرة الخامسة؛ حيث لا يوجد سقف للسماح بدخول ضوء الشمس. ومعظم أجزاء المعبد شيدت بالطوب اللبن عدا الأعمدة والبوابات وبعض الأجزاء التي استخدم الحجر في بنائها وكان يحيط بالمعبد سور كبير طوله حوالي ٨٠٠ متر وعرضه ٣٠٠ متر. ويتوسط جداره الغربي مدخل على هيئة صرح بين برجين عاليين من الطوب اللبن.

وترجع أهمية المعبد الآتوني واختلافه عن غيره من المعابد القديمة طوال العصور المصرية أنه لم يكن مخصصًا للصلاة والعبادة فقط، ولكن كان يحتوي على حوالي ٩٢٠ مائدة كقربان كان متعارفًا عليه سابقًا وضع القرابين عليها والمقدمة من المتعبدين للإله. ولكن في تل العمارنة كان الهدف منها توزيع الطعام على الناس من خلال وضع ذلك الطعام بمختلف أنواعه على تلك الموائد ويحصل العامة عليه وقت دخولهم للصلاة ليكون الإله آتون هو من أنعم عليهم بالعطايا. وقد خصص إخناتون وزيرًا للطعام يدعى «بنتو».

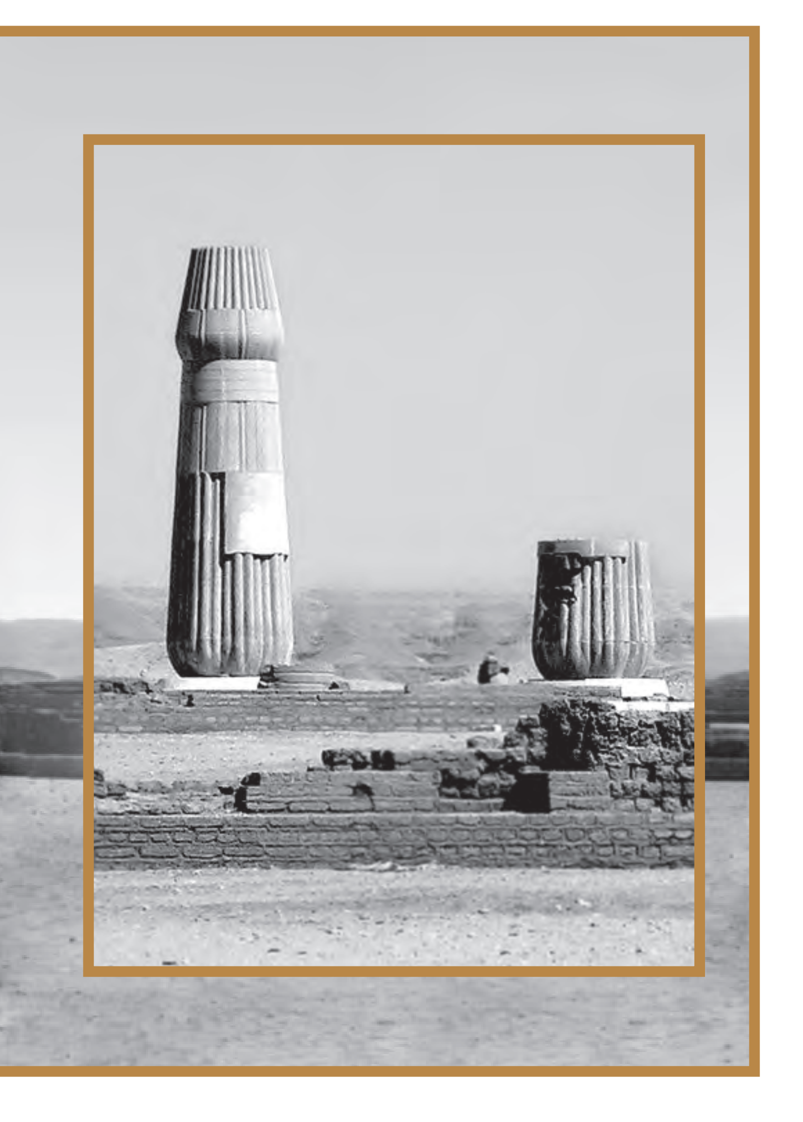
أما عن الأحياء السكنية فكانت المدينة تضم أكثر من حي سكني اختلطت فيها أحيانًا منازل العمال بالنبلاء، إلا أنه كانت هناك مدينة خاصة بالعمال بقاياها موجوده حتى الآن. وكان المنزل يتكون فيها من صالة أمامية أو حجرة جلوس وحجرة نوم. أما عن منازل النبلاء فكانت كبيرة الحجم تتضمن صالات وغرفًا وحمامات وصوامع لتخزين الغلال وأماكن لتربية الطيور والحيوانات. وكانت المنازل تُبنى من الطوب اللبن وتُغطَّى أحيانًا بالجص، ومن أهم النماذج بيت النبيل «بانحسي» وبيت الوزير «نخت».

وأخيرًا، تنفرد المدينة بالعديد من الصفات التي تجعلها تختلف عن غيرها من العواصم القديمة سواء داخل مصر أو خارجها، ومنها:

أولاً: المدينة لم يسكنها أحد قبل أن يقع اختيار إخناتون عليها لكي تكون كعاصمة للبلاد، و لم يستمر عمر المدينة أكثر من سبعة عشر عامًا؛ حيث عاش فيها ملكان بعد إخناتون؛ وهما سمنخ كارع وتوت عنخ آتون قبل رجوعه إلى طيبة وهجرته هو وكل من معه في المدينة.

ثانيًا: أصبحت المدينة مهجورة؛ حيث لم يجرؤ أحد على سكن المدينة فيما بعد على مر العصور التاريخية التي تلتها؛ وذلك بسبب ارتباط المدينة بالإله آتون والذي قام كهنة آمون بمسح أي لقب مرتبط بذلك الإله بل واعتبروا المدينة ملعونة.

ثالثًا: إلى الآن يحاول العلماء معرفة سبب مغادرة الناس لمدينة العمارنة. وهل عبادة آتون هي السبب أو هناك أسباب أخرى؟ يرجح بعض العلماء من خلال بعض الحفائر الحديثة بالمنطقة انتشار وباء الملاريا بين سكان المدينة وأنه ربما يعد السبب الرئيسي وراء هجرتهم للمدينة وعودتهم لطيبة.







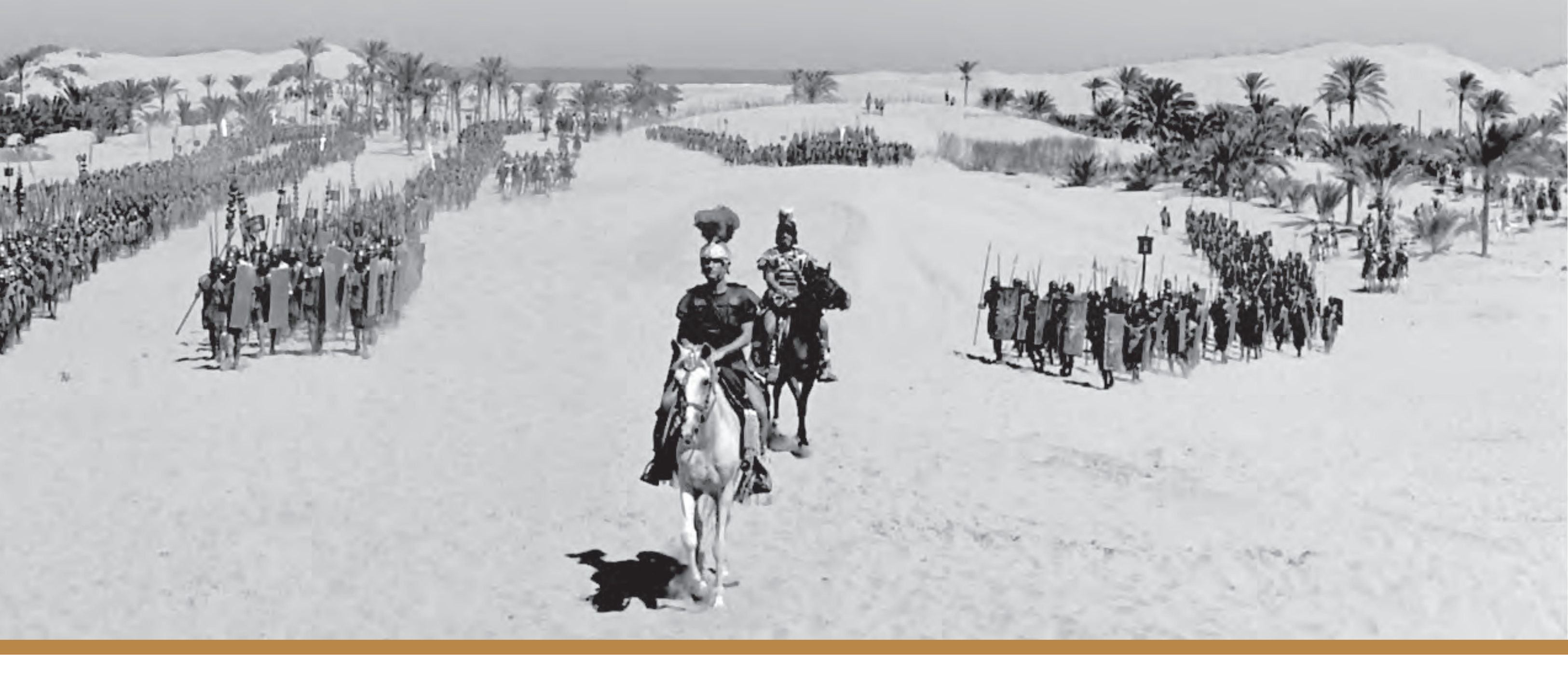
منظر لجدار داخل أحد مقابر تل العمارنة، وقد حوله الرهبان إلى محراب، وتحولت المقبرة بالكامل إلى كنيسة صغيرة على الطراز البازيليكي وذلك في القرن الرابع الميلادي (مقبرة بانحسي بتل العمارنة).

أطلال المعبد الآتوني الصغير والذي يتكون من ثلاثة أجزاء؛ جم (لقاء) آتون، وبيت الاحتفالات، وأخيرًا قدس الأقداس. والمعبد يمتد محوره إلى الطريق المؤدي للمقبرة الملكية.





هاني مهنى طه



وأنت قادم على الطريق الساحلي الدولي من الإسكندرية إلى رشيد وعندما تمر فوق الكوبري الذي يعبر بحيرة إدكو لتصل بعد دقائق قليلة إلى مدينة إدكو التي يفصلها عن شاطئ البحر المتوسط الطريق الدولي؛ حيث تعطي المدينة ظهرها لشاطئها. ويمكن تفسير ذلك بسبب حركة الرياح التي تحمل الرمال من الكثبان الرملية الكثيرة وطغيان تلك الرمال على الأجزاء الشمالية للمدينة؛ حيث وصف المقريزي إدكو في خططه بأنها «كثيرة النخل وكلها في الرمل»، وأشار إلى ذلك أيضًا الجبرتي – كان الجبرتي ناظرًا على أوقاف مسجد الشيخ علي الجبرتي بإدكو وهو المسجد الموجود حتى الآن بمنطقة كوم الطواحين – أشار إلى «أن الأراضي الموقوفة على المسجد زحفت عليها الرمال وطمستها وغابت تحتها». فواجهة المدينة إلى الجنوب وليست إلى الشمال؛ حيث البحر الذي يعشقه أهلها ويقصدونه للترفيه والصيد في آن واحد، «شاطئ إدكو السياحي» هذا هو اسمه ومن المفترض أن يكون كذلك، فهو وشاطئ رشيد يعدان المتنفس الوحيد لمحافظة كبيرة بمساحتها وسكانها وهي البحيرة، وبهما تطل المحافظة على ساحل البحر المتوسط، شاطئ إدكو الذي كان من المفترض أن يكون سياحيًّا بالتنوع الجمالي لرماله الناعمة وكثبانه الرملية الجميلة التي تزينها أُشجار النخيل والكروم. وقد تغيّر حال هذا الشاطئ بعد أن أُزيلت الكثبان الرملية القريبة من الشاطئ والممتدة لمسافات طويلة ومساحات شاسعة. وظهر قبح مظاهر المدينة الحديثة على الطبيعة، وضاعت ملامح الرمال الناعمة بعد اختلاطها ببقايا الصيد ومخلفات المصطافين، وقد تقلصت المساحة المخصصة للمصطافين بعد إنشاء العديد من الشركات على الشاطئ.

وعلى الرغم من وجود إدكو بين المدينتين الشهيرتين الإسكندرية ورشيد وضرورة المرور بها للوصول لأيٍّ منهما، فإن سيرتها قد ضاعت وأخبارها قد تناثرت، إلا من إشارات نجدها في ثنايا الكتب عن وقائع وأحداث وتراجم للأعلام، بما يشير إلى أهمية إدكو كنقطة انطلاق لغزو، أو استراحة لسلطان





وأمير، أو تجوال لرحالة ومستكشف. ونحاول أن نلقي الضوء هنا على إدكو طريق الولاة واستراحة الغزاة عبر شذرات ومقتطفات تاريخية، ولن نذكر فيها أعلام المدينة ومشاهيرها على مر الزمان فالحديث عنهم يطول.

إدكو المدينة التي قيل عنها:

عجبي على بلد ما بين بحـرين   تِبان بالنهار وتختفي بالليل

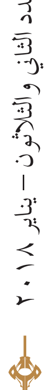
وكانت إدكو بهذا الوصف فلا يعرف بحرها من بحيرتها أو أولها من آخرها، وذلك قبل أن تمتد يد العمران إلى أطرافها، فحدّها الشمالي البحر المتوسط، والكثبان الرملية الساحرة التي تلاشت، وظلت في ذاكرة كبار السن وفي بعض الصور القديمة ولقطات سينمائية سريعة في الفيلم العالمي «كليوباترا» الذي تم تصوير بعض لقطاته على رمال إدكو يوليو ١٩٦٢م. وحدّها الجنوبي بحيرة إدكو التي تقلصت مساحتها باستقطاع أجزاء كبيرة منها، وفي الشرق والغرب الملاحات التي رُدمت وأصبحت مساكن عامرة وبيوتًا شاهقة. وبعد إنشاء خط السكك الحديدية الإسكندرية/ رشيد مرورًا بإدكو عام ١٨٧٦م وشق الطريق الأسفلتي – المحطة الآن – أصبح هناك طريق آخر غير الطريق القديم الموجود على ساحل البحر المتوسط.

إدكو

ذكرها الأثري المصري سليم حسن في «أقسام مصر الجغرافية في العهد الفرعوني» باسم إدقو أو تاجو، وتقع في الشمال الغربي من الدلتا، وقد أوردها في المقاطعة السابعة من مقاطعات الوجه البحري والتي تسمى في المصرية ر ع أمنتي أو نفر أمنتي، ومعناها المقاطعة الأولى غربًا التي سماها اليونان Metlite. وأضاف سليم حسن إلى ذلك أن إدقو من البلاد التي ظهرت بلفظها في العربية مع رقوده «ر ع قد» وهي مكان الإسكندرية تقريبًا، وكرباني (قارباني) على البحر الأبيض قريبة من بحيرة «إدقو».

وصف فكري إدكو بقوله: «بها جوامع بمنارات، وطاحونة ريحية، ومعمل فسيخ، ودكاكين، وأنوال كثيرة لنسج مقاطع قماش الحرير المعروف بالإسكندراني، والملس، والملاءة، وأقمشة القطن والكتان، وأهلها أرباب صنائع لهم شهرة بالكد والعمل والتنزه عن البطالة والكسل، وكثير منهم يصطادون السمك من بحيرتها، ومنهم من يتاجر في الفاكهة والبلح، ومَن يشتغل بالزرع، ومنهم مراكبية، وشربهم من حفائر يحتفرونها في الرمل لبعدها عن النيل، ويتصل بكثير من جهاتها البحيرة، والخالي منها أراضٍ رملية متفاوتة الارتفاع، تُزرع بها أنواع الخضروات والعنبِ والبطيخ، وبها ٧٠,٠٠٠ نخلة».

أما الأثري الفرنسي أميلينو فقال في «جغرافية مصر في العصر القبطي»: إتكو، يوجد هذا الاسم في عدة مخطوطات قبطية، فقد جاء في السنكسار في نهاية سيرة شهيد يقول عنه: «وأتوا أقوام من مدينة اتكو، وأخذوا جسده..»، كما ورد هذا الاسم في قائمة الأساقفة. وقال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: «إتكو بليدة قديمة من نواحي مصر قرب رشيد». أما ابن الجيعان في «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» فقد ذكر أنها من نواحي ثغر الإسكندرية. ونقل محمد رمزي في «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» عن جوتييه في قاموسه Ekebi أو Tkoou، وقال: وهي إدكو. وأضاف رمزي: «وكانت إدكو تابعة لمركز العطف فلما أنشئ مركز رشيد في أول سنة ١٨٩٦م ألحقت به لقربها منه». فما علاقة إدكو بمركز العطف البعيد عن إدكو، وهناك بحيرة إدكو التي كانت تفصل المدينة عن المدن والقرى الواقعة جنوبًا، فالأمر الطبيعي أن تكون تبعية إدكو للإسكندرية أو رشيد.



وللإجابة عن هذا السؤال من الضروري أن نلقي الضوء على التقسيم الإداري للمديريات والمحافظات المصرية في عهد الخديوي إسماعيل، فقد تم تقسيم مصر إلى قسمين، وكما ذكر محمد أمين فكري في كتابه «جغرافية مصر» الصادر عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، أي قبل عزل الخديوي إسماعيل بستة أشهر فقط. القسم الأول: شمال مصر ويقال له مصر السفلى والوجه البحري والأقاليم البحرية. والقسم الثاني: جنوب مصر ويقال له مصر العليا وصعيد مصر والوجه القبلي والأقاليم القبلية. وقد قُسم الوجه البحري إلى ست مديريات (القليوبية – الشرقية ويقال لها شرقية بلبيس – الدقهلية ويقال لها شرقية الدقهلية – المنوفية – الغربية – البحيرة). أما الوجه القبلي (الصعيد): فينقسم إلى ثماني مديريات (الجيزة – بني سويف – المنيا وبني مزار – أسيوط – دجرجا «جرجا» – قنا – إسنا).

وأضاف فكري أن البحيرة هي المديرية السادسة من الأقاليم البحرية، ومقر المديرية بدمنهور، وتشتمل المديرية على خمسة مراكز ضبطية؛ وهي (النجيلة – شبراخيت – العطف – الدلنجات – أبو حمص).

فأين إدكو من هذه المراكز؟ وهل كانت إدكو تابعة لرشيد وقتئذ؟

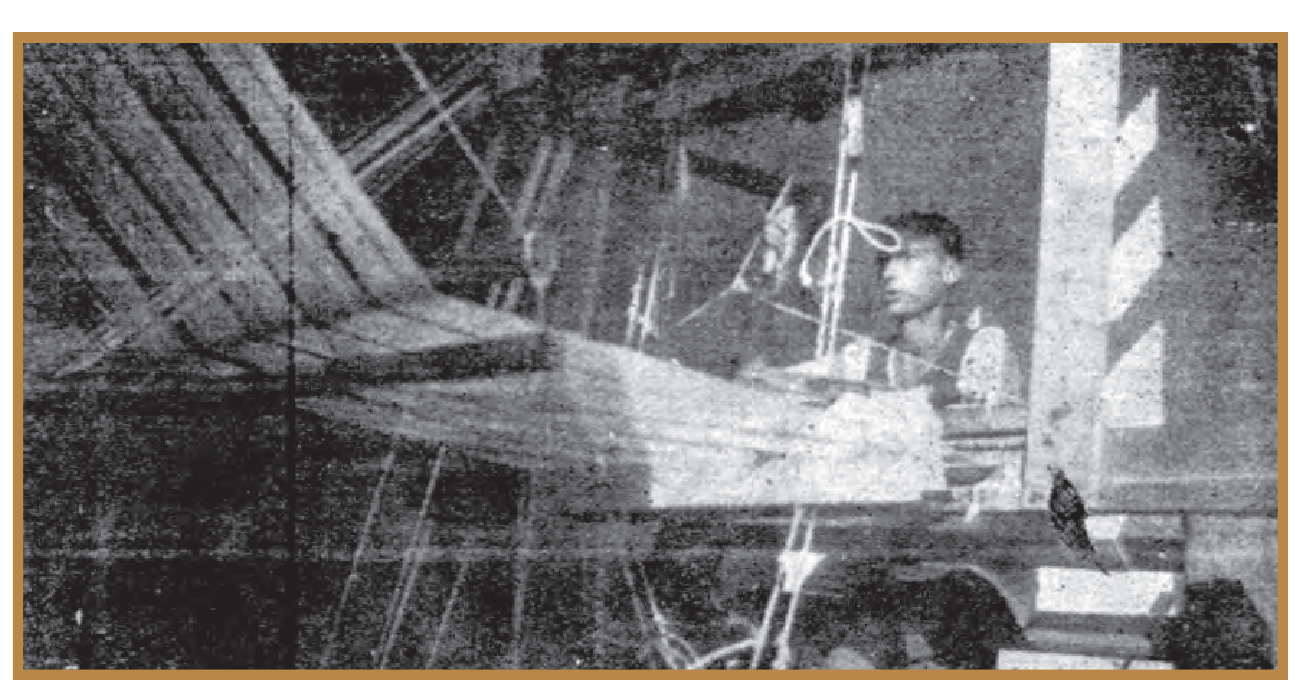
في هذا التاريخ لم تكن إدكو تابعة لرشيد، ولم تذكر رشيد ضمن المراكز التابعة لمحافظة البحيرة، فقد كانت رشيد محافظة مستقلة بذاتها. كما ذكر المؤرخ عبد الرحمن الرافعي في عصر إسماعيل: «كان بمصر تسع محافظات، وهي: القاهرة، والإسكندرية، ورشيد، ودمياط، وبورسعيد، والعريش، والإسماعيلية، والسويس، والقصير».

وأضاف الرافعي: «وبقية المديريات يرأسها المديرون، والمحافظات يتولاها المحافظون، واستمرت المديريات مقسمة إلى مراكز، والمراكز إلى أقسام، والأقسام إلى نواحٍ وبلاد».

فأين إدكو؟ الحقيقة أن تبعية إدكو في عهد الخديوي إسماعيل كانت لأحد مراكز محافظة البحيرة وهو «مركز العطف»، وقد حدّد فكري قرية العطف بأنها قرية بحري فم المحمودية بنحو ثلث ساعة في غربي النيل، أما مركز العطف فهو مثلث الشكل يحد بحدود ثلاثة. الحد الشرقي الشاطئ الغربي لفرع رشيد من حدود شبراخيت إلى حدود الجدية بقرب رشيد. والحد الجنوبي من حدود محلة بشر من قبلي مغربًا إلى ناحية لقانة. والحد البحري والغربي من لقانة مبحر إلى الجدية ويتصل به براري بحيرة إتكو.

وأضاف فكري: ومن البلاد الشهيرة التابعة لمركز العطف؛ إتكو، وتقع في الجنوب الغربي من رشيد على نحو أربع ساعات، وبينها وبين ساحل البحر المالح نحو نصف ساعة.

وما كتبه فكري عن إدكو لا يبتعد كثيرًا عما أورده علي باشا مبارك في الخطط التوفيقية الصادر عن المطبعة الأميرية (١٣٠٥هـ – ١٨٨٨م) أي بعد تسع سنوات من كتاب «جغرافية مصر» لفكري إلا أننا نجد أن فكري قد أوضح في مقدمة كتابه أنه رجع إلى علي مبارك «فأباح لي أن آخذ كل ما أردت من مسوداته من قبل أن تخرج إلى البياض».



وصف فكري إدكو بقوله: «بها جوامع بمنارات، وطاحونة ريحية، ومعمل فسيخ، ودكاكين، وأنوال كثيرة لنسج مقاطع قماش الحرير المعروف بالإسكندراني، والملس، والملاءة، وأقمشة القطن والكتان، وأهلها أرباب صنائع لهم شهرة بالكد والعمل والتنزه عن البطالة والكسل، وكثير منهم يصطادون السمك من بحيرتها، ومنهم من يتاجر في الفاكهة والبلح، ومَن يشتغل بالزرع، ومنهم مراكبية، وشربهم من حفائر يحتفرونها في الرمل لبعدها عن النيل، ويتصل بكثير من جهاتها البحيرة، والخالي منها أراضٍ رملية متفاوتة الارتفاع، تُزرع بها أنواع الخضروات والعنب والبطيخ، وبها ٧٠,٠٠٠ نخلة».

ونضيف بما ذكره علي مبارك في «الخطط التوفيقية»: «ولا يزرع بها شيء من أصناف الحبوب بسبب استيلاء الرمال على أرضها، وإنما يشترون الحبوب من رشيد والإسكندرية وبلاد الأرز، ومن عوائد أهلها ألا تخرج نساؤهم من البيوت إلا ليلاً متحفظات، وألا يخرج الرجل من بيته كائنًا من كان إلا ومقطفه على عاتقه، فإذا عاد استصحب معه في المقطف ولو حجرًا. ومنها أنهم لا يجعلون للقبور شواهد من البناء بل يزرعون فوق كل قبر صبارات في صورة مستديرة أو مربعة، وقبورهم متجاورة فإذا ترعرعت الصبارات وتفتح نورها ترى القبور كأنها روضة أزهار».

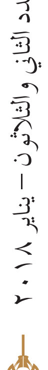
ومع إنشاء مركز رشيد عام ١٨٩٦م تم فصل إدكو عن مركز العطف، وأصبحت تبعيتها لمركز رشيد في أول العام المذكور، كما ذكر محمد رمزي في «القاموس الجغرافي». وظلت إدكو تابعة لمركز رشيد حتى إنشاء الوحدة المحلية لمركز ومدينة إدكو عام ١٩٨٠م.

الطريق القديم من رشيد إلى الإسكندرية

تدلنا الكتابات التي دوّنها الرحالة قديمًا أن طريق المواصلات بين رشيد والإسكندرية كان يمر بالقرب من ساحل إدكو، وكذلك وجود موقف للبغال والحمير بمنطقة إدكو لتسهيل حركة المواصلات.

وقد وصف بابلوان من أركان حرب الجيوش الصليبية (١٢٨٩–١٢٩١م) إدكو في أيامه، ونقل اللواء عبد المنصف محمود في «على ضفاف بحيرات مصر» ما ذكره بابلوان: «ومن رشيد إلى بلدة إدكو فرسخ واحد، ولذا فإن الفرسان والمحاربين يمكنهم السير على الأقدام من رشيد، والإغارة على البلدة المذكورة والاستيلاء على كل ما بها من البضائع؛ حيث لا حراسة عليها، وإذا طلبوا النجدة من الإسكندرية فإن بينهم وبينها ثمانية فراسخ طويلة، وفي الطريق إليها ذراع من الماء المالح قادم من البحر، ويدخل في بحيرة موجودة هناك (يقصد بوغاز المعدية الذي يصل بحيرة إدكو بالبحر المتوسط) وسعته ميل، ويطلق عليه اسم «الاستول» والذي لا يستطيع عبور هذا الذراع فإنه يهلك. ولن يقدم أحد للنجدة؛ لأن حاكم الإسكندرية ليس عنده سوى أربعين فارسًا وبعض البدو الخيالة وهم من سكان مدينة الإسكندرية، أما من القاهرة فلا يقدم المدد قبل ستة أيام أو أكثر».

كما وصف ليون الإفريقي ابن الوزان (ت ٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، المنطقة حول رشيد في «وصف إفريقيا»؛ قائلاً: «إن المنطقة الواقعة خارج مدينة رشيد يوجد بها كثير من البغال والحمير للتأجير لأولئك الذين يريدون الذهاب إلى الإسكندرية، والذي يستأجر أحد هذه الحيوانات لا يحتاج إلى قيادته، وما عليه إلا أن يتركه يذهب وحده إلى حظيرته، وهي حيوانات سريعة جدًّا



رسم من رحلة بريونينج إلى مصر ١٥٧٩م.

حتى إنها لتقطع أربعين ميلاً بين الصباح ووقت العصر، وتتبع دومًا ساحل البحر، حتى إن الأمواج لتضرب أحيانًا قوائمها». كما أشاد ليون بالأهالي بقوله: «والسكان أناس أليفون ولطفاء تجاه الأغراب ويقضون معهم راغبين وقتًا ممتعًا».

وبعد ليون بفترة وجيزة سجّل بريونينج في رحلته إلى مصر عام ١٥٧٩م مع صديقه كارلير دي بينون مشاهداته بالرسم، وهما في الرسم المرفق وخلفهما المترجم اليهودي رفائيل في طريقهم من الإسكندرية إلى رشيد، ونشر بريونينج تلك الرحلة عام ١٦١٢م.

ونجد رحلة أخرى قام بها العالم الفرنسي بيلون (١٥١٧–١٥٦٤م) – أوردها ماجد محمد فتحي في مقال نشر ببوابة الأهرام للحضارات (رحلة بيلون إلى مصر في القرن السادس عشر) – حيث دوّن بيلون في كتابه «ملاحظات عن أشياء عديدة ومختارة في اليونان وآسيا الصغرى ومصر» الذي نشره في باريس عام ١٥٣٣م، ما شاهده في المنطقة الواقعة بين الإسكندرية ورشيد، قائلاً: «وتمتد مسافات كبيرة من الرمال بين الإسكندرية ورشيد وتوجد هناك منطقة مزروعة بأنواع مختلفة من الأعشاب يتم تصدير العديد منها إلى البندقية وتُستخدم هذه الأعشاب بعد حرقها في صناعة الكريستال. وقد ذكر بيلون ملاحظة طريفة هي أن الرعاة كانوا يقومون بالتجول والتفتيش في الرمال لعلهم يجدون بعض العملات التي سقطت من المسافرين».

الطريق السلطاني وخان المعدية

وهناك بعض الملاحظات يمكن استنتاجها من قراءة بعض الخرائط المنشورة في «أطلس مصر» (الطبعة الملكية ١٨٢١–١٨٢٩م) لعلماء الحملة الفرنسية على مصر:

- يوجد طريق يسمى الطريق السلطاني ويبدأ الطريق من الكتلة السكانية لمدينة رشيد من جهتين شمال وجنوب مدينة رشيد، ويلتقيان في نقطة واحدة وسط الرمال غرب رشيد، ثم ينعرج شمالاً ليقترب من ساحل البحر المتوسط متجهًا إلى إدكو لينتهي عند المسجد – وسمي الآن مقام سيدي عبد الرازق.

- أما الطريق الآخر وهو الطريق العادي فيبدأ من جنوب مدينة رشيد وبالتحديد من نهر النيل بين قرية الجدية وقرية الحماد، ويتجه الطريق غربًا مارًّا بالقرب من شاطئ بحيرة إدكو التي كانت تصل إلى مشارف رشيد وقتئذ، وعندما يقترب الطريق من إدكو يتجه إلى الشمال ليمر وسط إدكو ووسط زراعات النخيل الإدكاوي، ويلتقي الطريق السلطاني والطريق العادي في نقطة التمركز شمال إدكو بالقرب من المسجد، ومن إدكو إلى بوغاز المعدية في طريق واحد على ساحل البحر المتوسط.

- بعد التقاء الطريق السلطاني والطريق العادي في نقطة الالتقاء بإدكو يتجه الطريق غربًا على الساحل أيضًا حتى يصل إلى المنطقة قبل بوغاز المعدية، والتي يوجد بها





خريطة الريس بيري.

الخان Caravansérail ويقصد به الفندق أو مكان الانتظار للمسافرين بصفة عامة، وجاء تحديد الخان في الخريطة العثمانية التي رسمها الريس بيري أوائل القرن السادس عشر الميلادي. وقد جاء ذكره أيضًا في العديد من المصادر التاريخية والرحلات قديمًا، نذكر منها رحلة دي روستي القنصل العام النمساوي في ديسمبر ١٨٠١م. ففي خطاب كتبه دي روستي إلى البارون راثكيال الرسول البابوي للنمسا لدى الباب العالي بالقسطنطينية والمؤرخ في ديسمبر ١٨٠١م ونشر في «مصر في عهد الفوضى» ذكر أن القبطان باشا – قائد الأسطول العثماني – قد أهداه بقجة وهي قطعة من القماش على شكل مربع تستخدم في لف شيء وتستخدم كهدية، وأمر بإعداد فلوكة لتحمله إلى إدكو.

وقد ذكر روستي في رسالته أيضًا انتقاله من رشيد إلى الإسكندرية عبر بحيرة المعدية، وما قام به الجنرال الإنجليزي هاتشينسون من تيسير رحلته بتزويده بـ ١٢ جوادًا، و١٢ فارسًا.

كما ذكر الضابط الفرنسي جوزيف ماري مواريه في مذكراته أنه في الخامس من يوليو ١٧٩٨م تحركت الجيوش لمطاردة المماليك في ثلاثة اتجاهات؛ الأول صوب اليمين، أما الوسط فأخذ طريقه إلى دمنهور، بينما سار الثالث شمالاً بمحاذاة البحر متجهًا إلى رشيد.



خريطة لفرع رشيد يصب في البحر المتوسط وبجانبه بحيرتا إدكو والبرلس، ويظهر فيها أيضًا ميناء/ بوغاز رشيد – من كتاب «البحرية» للجغرافي وعالم البحرية العثماني محيي الدين بيري ريس، ترجع لبدايات القرن السادس عشر.

وذكر مواريه في «مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية» أنه كان ضمن المجموعة الأخيرة. وأضاف: «غادرت فرقتنا وهي فرقة كليبر بقيادة الجنرال دوجا الإسكندرية بهدف الاستيلاء على رشيد، وما كدنا نبتعد عن الإسكندرية بمقدار ساعتين حتى وجدنا أنفسنا نسير في صحارى من الرمال، لقينا فيها جميع صنوف التعب والألم والعطش.

أقمنا مخيماتنا بالقرب من أبي قير، ثم واصلنا السير في صباح اليوم التالي. وأشار مواريه إلى بوغاز المعدية بقوله: «كان علينا اجتياز فرع صغير للبحر يفصل رشيد عن الإسكندرية – يقصد بوغاز المعدية – لم يكن هذا اليوم شاقًّا مثل البارحة، فقد اضطررنا للتوقف انتظارًا للمراكب التي ستعبر بنا ولم تكن قد وصلت بعد. وما إن اجتزنا البحر حتى أقمنا خيامنا، ومكثنا بالقرب من هذه الشواطئ حتى رحلنا عنها في الساعة الثالثة صباحًا».

– بعد انتظار المراكب للمرور من بوغاز المعدية، يتفرع الطريق الساحلي مرة أخرى إلى طريقين؛ الأول يتجه غربًا إلى شاطئ البحر المتوسط إلى الإسكندرية، والثاني يتجه جنوبًا إلى كفر الدوار. ونجد أن الدولة قد اهتمت بحماية الطريق الساحلي من الإسكندرية إلى رشيد مرورًا بإدكو، وخصصت له بعض العربان لحراسة التجار وحماية بضائعهم.

وقد أشار الدكتور عبد الحميد سليمان في «تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني» إلى ذلك بقوله: «أما درب رشيد الواصل بين ثغر الإسكندرية ورشيد فقد التزم بخفارته ودركه مشايخ عربان البهجة؛ حيث أقروا أمام الحاكم الشرعي والقبودان وباقي متكلمي ثغر الإسكندرية بما يلي: أشهدوا كلاًّ منهم على نفسه أن عليهم غفر درب رشيد، وأنهم متضامنون متكافلون، وأن كل من قام بضرر الدرب عليهم دفعه، وكل ضائع عليهم رده».



خريطة إدكو – وصف مصر من أعمال الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ – ١٨٠١م.

إدكو المدينة الصغيرة أيام الحملة الفرنسية

«نواة المدينة القديمة في الأصل هي السوق أو البازار الوطني، أي القلب التجاري في مدينة العصور الوسطى، الذي كان يقوم عادة في ظل الجامع الكبير بمثل ما تنتشر حوله غابة من المساجد الصغرى، وغالبًا ما يحتل الجامع الكبير قمة ربوة المدينة أو يتوسطها.. وهذا الارتباط بين السوق والمساجد علامة على العلاقة الحميمة بين التجارة والدين، والتي تتجسم خاصة في مناسبات الأعياد والمواسم والاحتفالات الدينية كما في مولد السيد البدوي بطنطا والدسوقي بدسوق والقنائي في قنا.. ولا تكاد مدينة مصرية مهمة تخلو من شارع الجامع بصفة عامة».

هذا ما ذكره العالم الجغرافي الدكتور جمال حمدان في موسوعته الشهيرة «شخصية مصر»، وإذا قمنا بتطبيق ما ذكره حمدان على مدينة إدكو نجد أن الكتلة السكانية لإدكو القديمة كانت متمركزة فوق ربوة وهي منطقة كوم الطواحين الحالية، ومن حولها مجموعة من المساجد بالإضافة إلى السوق القديم بمنطقة مسجد الحمصاني.

فإذا وقفت في تلك المنطقة ونظرت جهة الجنوب وجدت أمامك على مسافة قصيرة مسجد سيدي داود ويمتد الطريق من هناك إلى المحطة مباشرة، ثم بحيرة إدكو التي كانت تمتد إلى هذا الموضع، وإذا نظرت غربًا وجدت مسجد العراقيات وعلى مقربة منه مستنقعات المياه التي كانت تمتد إلى الشرق من شارع بورسعيد الآن، وفي الشمال من مسجد العراقيات وعلى بعد أمتار مسجد سيدي إبراهيم بن عمر ومنه إلى الشرق مسجد سيدي خلف وتمتد الكثبان الرملية شمال المسجدين حتى ساحل البحر المتوسط، ثم اتجه جنوبًا من مسجد سيدي خلف إلى مسجد الشلبي ثم مسجد تاج الدين وعلى مقربة منهما كانت توجد المستنقعات الواقعة شرق المدينة، ومن تاج الدين إلى سيدي داود. فتجد نفسك داخل الدائرة التي يقع على أطرافها المساجد القديمة المذكورة وفي القلب مسجد الحمصاني والسوق القديم ومسجد الجبرتي ومقام محمد العيساوي والموجود في الصورة بين الطاحونة ومسجد الجبرتي، وموضعه الآن مدرسة كوم الطواحين – بالإضافة إلى الطاحونة الهوائية الوحيدة – التي




مسجد إبراهيم بن عمر.



مسجد الجبرتي.

أنشئت عام ١٨٣٢م في عهد محمد علي باشا وليس في العهد المملوكي كما يقال- والصامدة حتى الآن بعد اندثار سبع طواحين أخرى.

وإذا رجعنا إلى إدكو زمن الحملة الفرنسية على مصر ونظرنا إلى الخريطة المنشورة في أطلس مصر لعلماء الحملة الفرنسية (الطبعة الملكية ١٨٢١-١٨٢٩م) يمكننا الوقوف عند بعض النقاط لتوضيح الفكرة العامة لما ذكرناه؛ من حيث وصف الكتلة السكانية لإدكو منذ أكثر من مائتي عام، على النحو التالي: أولاً: تقع بحيرة إدكو في جنوب المدينة وتمتد بما يشبه اللسان إلى الشمال الغربي والشمال الشرقي، وهما ما سمي فيما بعد الملاحة الشرقية والملاحة الغربية بعد إنشاء خط السكك الحديدية الإسكندرية - رشيد عام ١٨٧٦م وفصل المنطقة عن المسطح المائي لبحيرة إدكو، ثم إلى الشمال المنطقة السكانية، وفي شمالها أشجار النخيل والكثبان الرملية، وأخيرًا الأرض «السبخة» بالقرب من ساحل البحر المتوسط.

ثانيًا: الدائرة الحمراء؛ هي الكتلة السكانية لإدكو أيام الحملة الفرنسية وفي الجزء الشمالي الغربي والشمالي الشرقي امتداد للبحيرة مع وجود منطقة رملية جنوبًا لم تُسكن، وبهذا الشكل هي جزء من منطقة المقابر (الجبانة) الآن، ولتقريب صورة الكتلة السكانية لإدكو وقتئذ يمكننا تحديدها بشكلها الآن، وهي منطقة كوم الطواحين وما يحيط بها من الجهات الأربع وهو ما أوضحناه بالشرح.



الطاحونة الهوائية التي أنشئت عام ١٨٣٢م في عهد محمد علي باشا.









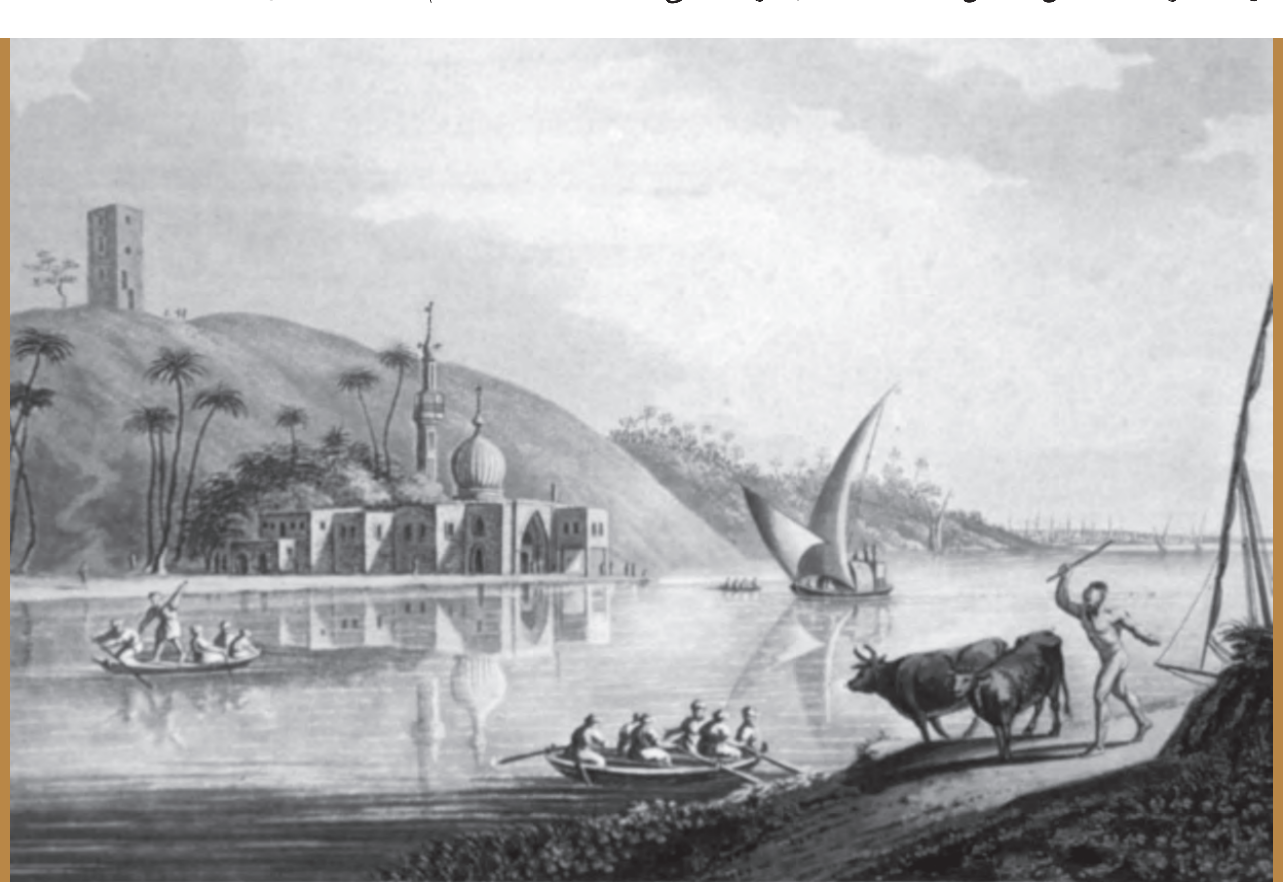


وقد جاء في القسم الخاص بالرحلة إلى غرب الدلتا الذي كتبه شابرول لانكريه في كتاب «وصف مصر»: «وتشبه إدكو الواقعة على الطريق بين رشيد والإسكندرية لمدينة صغيرة أكثر مما تشبه لقرية، ويوجد بها عديد من المآذن والمنازل المبنية بالطوب المحروق وهو نفس ما نجده في رشيد؛ حيث المنازل واسعة تتكون من عدة طوابق، ولا تشاهد في هذه الأماكن أية حيوانات ضخمة ولا يسكنها إلا الصيادون. وقد تزايد عدد سكانها بسبب تهدم القرى المجاورة لأبي قير، وقد دفنت الرمال التي يخرجها البحر من جوفه باستمرار والتي تحملها رياح الشمال فوق إدكو جزءًا من المدينة بالفعل».

وقد وصف جولوا في كتاب «وصف مصر» أيضًا؛ طغيان الرمال على الطريق الساحلي القديم؛ حيث وقف عند أبي مندور في رشيد ونظر جهة الغرب، قائلاً: «وإلى الغرب نلمح تلك الصحراء التي تفصل رشيد عن الإسكندرية، لكن المشهد يضيع وسط تلك الرمال المتحركة التي لم تُبقِ مطلقًا على أثر لخطوات الرحالة، ولقد كان من الممكن ألا نلحظ الآثار الواقعة على طريق الإسكندرية/ رشيد، لو لم تكن تشير إليها وتلفت الأنظار تلك الأعمدة من الطوب النيئ التي تنهض تباعًا بطول الطريق، وتزحف هذه الرمال المتحركة حثيثًا نحو مدينة رشيد حتى ليبدو وكأنها تريد أن تغزوها كلية، فهي تتراكم حول أشجار النخيل وحول أقل العوائق التي هناك لتكون كثبانًا يتزايد عددها يومًا بعد يوم، ولسوف تغطي عما قليل الرقعة المنزرعة من الأرض».

وما ذكره جولوا عن طغيان الرمال على المزروعات في رشيد هو أيضًا ما وقع في إدكو، فاستقرت الكتلة السكانية في أعلى منطقة في المدينة (كوم الطواحين) وزحفت الرمال على المناطق الشمالية باتساعها.

ثالثًا: المربع الأخضر؛ وهو صهريج المياه. وقد عُرف هذا الطريق قديمًا بكثرة آبار المياه، ولكن تم تحديد كلمة صهريج على الخريطة، وفي المفاتيح العامة للخرائط هناك وجود لكلمة آبار، فمن المحتمل أن الصهريج المقصود غير الآبار التي كانت موجودة وقتئذ، و لم يأت ذكرها على الخريطة.



وقد تمت تسمية بعض المناطق الجديدة بإدكو الآن باسم تلك الآبار، وذكر الأديب الراحل محمد محمود زيتون في كتابه «إدكو ماضيها حاضرها مستقبلها» الصادر عام ١٩٣٧م، أنه اطلع على خريطة مصلحة المساحة لإدكو سنة ١٩٣١م فاستطاع تحديد أكثر من ٣٠ بئرًا منها وبعض هذه الآبار مبنيٌّ بناءً محكمًا وفي أشكال هندسية منتظمة. وأكد زيتون على ذلك بقوله: «يوجد شمال بئر زيتون المعروف لدى الأهالي سبع آبار على صف واحد، بين البئر والأخرى عشرون مترًا، وكذلك في شمال مقام سيدي خلف صف من الآبار الواسعة إلى الشمال. وهذه الآبار نهب بين الرمال وعوامل التعرية، ويرجع اكتشافها في هذه الرمال إلى ما يزيد عن مائة عام – أي منذ عام ١٨٣٥ م تقريبًا – فكان يعثر عليها عن طريق الصدفة؛ إذ يحفر الأهالي في حقولهم الرملية، وكانوا يعملون بجد على إخراج ما فيها من مقذوفات الرمال ويصلحون منها ما يحتاج إلى الإصلاح. وهذه الآبار على أنواع ثلاثة، فمنها ما هي مستديرة قطرها يزيد عن ثلاثة أمتار، وأحيانًا تكون أقل من هذا إلى أن تكون مترًا، ومنها ما هي مربعة الأضلاع من متر إلى مترين، وكلها مبنية من حجارة صلدة كالصوان. ولا يُخفى ما كان لهذه الآبار ومالها الآن – عام ١٩٣٧م – من فضل على المزروعات الصحراوية واتخاذها للشرب؛ إذ لا معين غيرها هناك».



خريطة مصلحة المساحة لإدكو ١٩٣١م.

وما ذكره زيتون عام ١٩٣٧م، عن الشكل الهندسي للآبار رأيته بعيني، فأثناء عملية الحفر لتجديد أحد المساجد التاريخية والقديمة وسط المدينة، وهو مسجد العراقيات في أوائل تسعينيات القرن الماضي، فقد ظهرت فوهة لبئر دائرية وعميقة كانت ملاصقة لميضأة المسجد. الغريب أن البئر لم يشاهدها أحد من كبار السن من قبل، ولم أجد إشارة عنها لدى زيتون، والغريب أيضًا أن بئر العراقيات هذه بشكلها الهندسي واتساعها تم ردمها والبناء عليها.

وقد ذكر زيتون أسماء مجموعة من الآبار؛ وهي: (بئر قاسم، وبئر الحلو، وبئر زيتون، وبئر قطيط، وبئر العبد، وبئر القوالب، وبئر شلبي، وبئر السنجق، وبئر البركة، وبئر عيده، وبئر أم عبد الله، وبئر الشيخ، وبئر طاجن، وبئر الأمير جبير، وبئر الشريف، وبئر العرضي، وبئر سيدي عبد الرازق، وبئر الجميزة، وبئر خميرة). ولا وجود لتلك الآبار الآن إلا في أسماء بعض المناطق السكنية الجديدة والتي أقيمت في نطاقها، وحملت أسماء تلك الآبار؛ مثل حي بئر شلبي، وبئر قاسم، وبئر صديق، وبئر الحلو.

رابعًا: المستطيل الأزرق؛ (المسجد) كما هو مدون على الخريطة. وأرجح أن هذا المسجد هو مقام سيدي عبد الرازق بالقرب من ساحل إدكو الآن، وكان نقطة التقاء الطريق السلطاني القادم من رشيد على ساحل البحر، والطريق العادي القادم من شاطئ النيل فيما بين الجدية والحماد مرورًا على شاطئ بحيرة إدكو حتى نقطة التمركز بمنطقة سيدي عبد الرازق، ومنها في اتجاه واحد إلى بوغاز المعدية للعبور إلى الإسكندرية.

والغريب أن الكتلة السكانية لمدينة إدكو ظلت كما هي لمدة تزيد عن ١٥٠ عامًا من خروج الحملة الفرنسية، تتركز معظمها في منطقة كوم الطواحين وما يحيط بها من الجهات الأربع، بالإضافة إلى بيوت متفرقة في الفضاء الإدكاوي الرحب وسط الرمال وحقول النخيل والأعناب في شمال المدينة وغربها وشرقها، أما جنوب المدينة فكان الامتداد حتى محطة السكك الحديدية، ويمكننا تأكيد ذلك من وثيقة مؤرخة في مايو ١٩٤٥م. وخاصة بتقسيم بندر ناحية إدكو بين مشايخ البلد الأربعة وقّع عليها العمدة أحمد محمد قاسم المتوفَّى ١٩٥٠م، والمشايخ سليم عبد الوهاب زيتون، ومحمد عبد الحميد زيتون، ومحمد شعبان أحمد قاسم – أصبح عمدة لإدكو بعد وفاة أبيه – وعبد الحميد رمضان صفار. وترجع أهمية الوثيقة إلى أنها تحدد تحديدًا دقيقًا بداية الشوارع والمناطق وتبعيتها من شيخ إلى آخر. وعلى ذلك يمكننا التوقف عند هذا التقسيم لنتعرف على الكتلة السكانية للمدينة منذ أكثر من ٧٠ عامًا والتي لم تختلف عن الوصف العام لإدكو أيام الحملة الفرنسية وما ذكرناه في «دائرة المساجد»، فقد كانت المدينة محاطة بالبحيرة جنوبًا وفي الجانبين الشرقي والغربي الملاحات، وفي الشمال الكثبان الرملية وأشجار النخيل حتى ساحل البحر المتوسط، واضطرت العائلات مع الزيادة السكانية إلى التوسع العمراني والخروج من المنطقة السكنية الضيقة إلى الأراضي الرحبة، وبدأ الانتشار العشوائي للمباني على المساحة الشمالية للمدينة وتحولت الكثبان الرملية وأشجار النخيل إلى

مبان عشوائية، والغريب أن كل ذلك في الخمسين عامًا الأخيرة فقط، فقد انعدم التنظيم والضمير. انعدم التنظيم فلا توجد شوارع مناسبة بين البيوت الجديدة المنتشرة في أرجاء المدينة على الرغم من المساحات الممتدة هنا وهناك، والغريب أيضًا أنه لولا شق شارع البحر عام ١٩٦٢م – مع تصوير فيلم كليوباترا وهو الشارع الممتد من محطة السكك الحديدية جنوب المدينة إلى ساحل البحر المتوسط – لما كان هناك طريق ممهد يربط بين الشوارع الصغيرة والحارات الضيقة إلى وسط المدينة، بالإضافة إلى أهميته في أنه الطريق المباشر لشاطئ بحر إدكو.

مقام سيدي عبد الرازق سنة ١٩٣٥م.



مقام سيدي عبد الرازق سنة ١٩٦٢م.

أما انعدام الضمير فيتمثل في ظهور مافيا الاستيلاء على الأراضي بعدما ارتفع ثمنها من ملاليم إلى ملايين في العشرين سنة الأخيرة، وخاصة مع إنشاء الطريق الساحلي الدولي بالقرب من ساحل البحر، وتحولت مناطق النخيل والأعناب وملاذ الشباب للعب كرة القدم في الملاعب الكثيرة التي اشتهرت بأسماء الفرق، تحولت إلى بؤر للخلافات والنزاعات والفرقة بين العائلات.

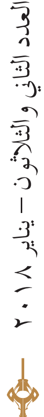
وصف إدكو في يوميات الضابط الإنجليزي توماس والش

أسفرت معركة كانوب التي دارت رحاها في الحادي والعشرين من مارس ١٨٠١م بمدينة الإسكندرية عن انتصار الإنجليز على الفرنسيين مما كانت له تداعيات كبيرة أبرزها الإسراع بجلاء قوات الاحتلال الفرنسي من مصر، وقد تم جلاء تلك القوات في الثاني من سبتمبر ١٨٠١م. وحينئذ وجد بعض قادة الحملة الإنجليزية الفرصة سانحة للقيام بجولة سياحية لزيارة بعض معالم مصر التاريخية؛ ومن أهمها أهرامات الجيزة. وعن تلك الرحلة بالإضافة إلى تفاصيل الحملة الإنجليزية التي جاءت باتفاق مع العثمانيين لإخراج الفرنسيين من مصر دوّن الضابط الإنجليزي توماس والش في كتابه عن يوميات آخر حملة في مصر تفاصيل تلك الحملة بداية من انطلاقها من جبل طارق في نوفمبر ١٨٠٠م حتى وصولها إلى أبي قير في مارس ١٨٠١م.

وننقل هنا بشيء من الإيجاز والتصرف ما كتبه والش في كتابه *Journal of the Late Campaign in Egypt* والذي نشر في لندن عام ١٨٠٣م عن مروره بإدكو ورشيد. وما كتبه والش عن المدينتين المتجاورتين إدكو ورشيد لا يختلف كثيرًا عما جاء في كتاب «وصف مصر» لعلماء الحملة الفرنسية، بل إن هناك كثيرًا من نقاط الاتفاق في الوصف والشرح بداية من عبور بوغاز المعدية ووصف خان المعدية، وكذلك وصف إدكو وقتئذ، والوصف العام لمدينة رشيد وبيوتها وشوارعها وأهلها.

كتب توماس والش عن اتفاق الجنرالين كوت Coote ولادلو Ludlow على القيام برحلة عبر النيل لزيارة رشيد والقاهرة والأهرامات. وقد عبّر والش عن سعادته بالإضافة إلى حسن حظه بالخروج في تلك الرحلة التي أوْلاها قبطان باشا رعايته، ومنحها حمايته ووفر لها وسائل الراحة وسبل الانتقال اللازمة بداية من التحرك من أبي قير إلى إدكو ومنها إلى رشيد، بالإضافة إلى التوصيات والتسهيلات المطلوبة في طريق سفرهم. وذكر والش بداية التحرك من معسكر الجنرال كوت إلى غرب الإسكندرية صباح يوم الخامس من سبتمبر ١٨٠١م – أي بعد ثلاثة أيام من خروج قوات الجيش الفرنسي من مصر – والذهاب إلى مقر الجنرال هتشنسون Hutchinson القائد الأعلى للجيش الإنجليزي.

«وفي الساعة الحادية عشرة كنا في انتظار القبطان الذي كان مهذبًا وودودًا وأعطانا خطابات للوزير الأعظم. وفي الساعة الواحدة ظهرًا ذهبنا إلى باخرته في مخزن المدفعية، وأبحرنا





تجاه بحيرة أبي قير مستمتعين بنسمات مبهجة. عبرنا المعسكر وأدرنا الدفة تجاه خان للراحة وهو مبنى مربع قديم عند مدخل بحيرة إدكو. وعندما أصبحنا في مقابل الممر أدركنا أن الحاجز الذي لطالما كان خطيرًا، أصبح الآن أشد خطورة؛ نتيجة الرياح الشديدة التي كانت تهب بشكل مستمر على الشاطئ، ونجونا من هذا الممر الخطير في دقائق بفضل خبرة قادتنا، وتوقفنا لوقت قصير في الخان – يقصد خان المعدية – فيما كان القارب الخاص بنا يتم سحبه في بحيرة إدكو. ويعتبر الخان حلقة الوصل بين أبي قير ورشيد، ولذلك وضعت فرنسا قوات من المدفعية هناك، وهو مكان صغير وفقير ولا يرمز لأي شيء سوى أنه آمن من توغلات ومناوشات العرب.

ويفصل بحيرة إدكو عن بحيرة أبي قير مساحة صغيرة ضيقة جدًّا تكونت حديثًا بفعل فيضانات النيل في عام ١٨٠٠م مما أدى إلى تكوُّن ممر جاهز لمياه النهر فتدفقت بغزارة في اتجاه الأراضي المنخفضة. وتسبب ذلك في وصل مياه البحر بالنهر من خلال المنحدرات بالقرب من الخان. وعندما ينحسر النهر يحل محله البحر من خلال فتحة الممر، وهو بذلك يضمن بقاء واستمرار البحيرة الجديدة.

وبعد إبحار رائع ومبهج وصلنا لقرية إدكو التي تقع على منحدر تل على حدود البحيرة ومحاطة بغابة كثيفة من النخيل لترسم منظرًا أخضر طبيعيًّا على بعد. ولأننا تأخرنا قررنا أن نتوقف فيها لليلة وقضينا الليلة في منزل شيخ البلد. وعلى الرغم من رداءته كان هذا البيت أفضل مكان نستطيع أن نوفره. وهذه القرية من أفضل القرى الموجودة وكل البيوت مبنية بها بالطوب.

وفي الساعة السادسة والنصف صباحًا انطلقنا من إدكو على خيولنا مسرورين بهذا الترحيب اللطيف والمهذب لضيافتنا، وفي التاسعة وصلنا لرشيد، الجزء الأكبر من الطريق كان عبارة عن أرض رملية قاحلة ووجدنا الجيش الهندي بقيادة الجنرال بيرد – قائد الجيش الإنجليزي في الهند استُدعيَ للمشاركة في دعم حملتهم على مصر – بعد حوالي ميل من المدينة يخيم على الساحل الرملي على أقصى ارتفاع في أبي مندور.

ولا يوجد ما تتباهى به رشيد سوى موقعها الجيد؛ المنازل بها عالية ومسطحة وبُنيت بطريقة سيئة وغير منظمة، والمنازل المسكونة بواسطة الأوروبيين هي التي تعتبر متعددة الطوابق ويمكنك أن تصعد لأعلى بواسطة سلالم منحدرة وصعبة، وبدلاً من الزجاج على النوافذ توجد إطارات شبكية من الخشب المصمم والمنحوت بأشكال متعددة تشبه القضبان وهذه هي الطريقة السائدة في هذا الوقت نظرًا للسيادة التركية، وهذه الشبابيك تسمح بوجود ممر من الهواء. لا شيء يضاهي جمال الحدائق في رشيد فيها بهجة وجمال يبتغيه المسافرون وفيها أشجار البرتقال والموز، كما أن المرسى على ضفاف النيل مزدحم جدًّا بالسفن. ويبدو أن المدينة تتميز بتجارة نشطة، والسكان أيضًا يتمتعون بسمة من البهجة لم أعهدها من قبل. في الثانية عشرة أخذنا القارب الذي تم تجهيزه لنا وتزويده بكل ما تحتاج إليه رحلتنا تحت قيادة القبطان باشا، وانطلقت الرحلة لمشاهدة الأهرامات والقاهرة».

شيخ مشايخ إدكو يتلاعب بالإنجليز في حملة فريزر ١٨٠٧م

أورد الأديب الراحل محمد محمود زيتون في كتابه «إدكو ماضيها حاضرها مستقبلها» الصادر عام ١٩٣٧م، وكتابه الآخر «إقليم البحيرة» الصادر عام ١٩٦٢م، قصة محمد أحمد صفار شيخ مشايخ إدكو الذي قُتل مع آخرين في معركة دموية بين عائلتي قاسم وصفار، وتولى المشيخة بعده أحمد أحمد صفار عام ١٨٠٦م، وعندما علم محمد علي باشا بالخبر طلب من شيخ البلد كتابة أسماء القتلة، فكتب ما أملته نفسه الحانقة على قتل أخيه عددًا من الخصوم سواء ارتكبوا القتل أم لا –كما ذكر زيتون – فجيء بهم إلى منشية الإسكندرية وأعدموا بالسيف



ودفنوا حيث الزاوية المعروفة بزاوية الإدكاوية وعددهم أحد عشر رجلاً.

وبعدما انتصر أهالي رشيد على الحملة الإنجليزية بقيادة فريزر ١٨٠٧م، وجاء محمد علي لزيارة إدكو استقبله شيخ مشايخ إدكو أحمد أحمد صفار في منزله الكائن في وسط إدكو إلى الشرق بالقرب من دكاكين السد القديمة، وطلب صفار من الباشا إعفاء أهل إدكو من حراسة النيل أثناء الفيضان، وأن يكون له نفاذ الكلمة في إدكو، وعرض عليه الباشا التزام الصيد ببحيرة إدكو فرفض، وبالفعل وافق محمد علي على طلب شيخ المشايخ صفار.

وقد استغل شيخ مشايخ إدكو الوضع الجديد – حسبما ذكر زيتون – وبالغ في عسفه وجوره إلى حد أن نقل من حقول الأهالي ألف نخلة سماني أمر بغرسها في حقل له سمي بالألفي، وقد سخر الله ريحًا صرصرًا عاتية إلى الألفي فأصبح هذا الحقل أعجاز نخل خاوية.

بعد هذه القصة عن فترة حكم صفار، وما تبعها من تولي فرحان محمد أحمد صفار مشيخة إدكو بعد موت عمه، كما ذكرها زيتون نجد أن هناك قصة تغافل عنها زيتون و لم يوثقها في كتابه على الرغم من رجوعه إلى العديد من المصادر الأجنبية وهو يؤرخ لحملة فريزر على رشيد ومرورها بإدكو وسرده لتفاصيل دقيقة عن خط سير الحملة في ذهابها إلى رشيد ورجوع فلولها بعد الهزيمة في رشيد. ونجد تفاصيل هذه القصة في الرسالة التي كتبها هالويل؛ القائد البحري في الحملة إلى نائب أمير البحر؛ ثورنبروه، وأوردها المؤرخ محمد فؤاد شكري في كتابه «مصر في مطلع القرن التاسع عشر»، لم يذكر شكري أو هالويل اسم شيخ مشايخ إدكو أحمد أحمد صفار بالاسم لكن جاءت سيرته أن شيخ مشايخ إدكو ١٨٠٧م تلاعب بالإنجليز، و لم يدلنا على اسم شيخ المشايخ في هذه الفترة إلا زيتون عندما أرَّخ لتوليه المشيخة كما ذكرنا من قبل، فلماذا تجاهل هذه الواقعة؟

وتتلخص الواقعة في أنه بعد هزيمة الإنجليز في رشيد ثم الحماد في حملة فريزر، تراجعت القوات الإنجليزية وتحصنت بالإسكندرية، وقد نقل شكري ما ورد في الرسالة عند حديثه عن محاولة الجنود الأرناؤوط بطريق بحيرة إدكو اقتحام القطع بين المعدية وخليج أبي قير لمهاجمة أبي قير ذاتها في ١٦ مايو ١٨٠٧م.

وجاء بالنص: «ولما كان حتى هذا الوقت لم يتخذ شيخ إدكو أية إجراءات عدوانية ضدنا، لم يبدِ من جانبنا ما يعطل حركة قوارب هذه القرية ونشاطها في البحيرة، ولكنه لما كان قد رضي في هذا الحادث – حادث ١٦ مايو – بأن تعبر البحيرة قوات كبيرة للعدو وأن تستخدم قنجاته (القُنْجَة كما جاء في معجم ريهارت دوزي: القارب، أو مركب شراعي صغير) في عبورها ودون أن ينذرنا بتاتًا باقترابهم على خلاف ما كان يعدنا به دائمًا، ولما كان قد بلغنا كذلك أنه قد أرجع إلى رشيد ضابطًا إنجليزيًّا من الآلاي الخامس والثلاثين كان قد فر منها ووصل إلى قرية إدكو، فقد اعتبر مسلكه لذلك كله إن لم يكن معاديًا لنا بطريق مباشرة، فهو قطعًا يدل على ميوله الودية نحو العدو (يقصد بالعدو الأرناؤوط) وبناءً عليه ولما كان أمير البحر مريضًا – ويقصد توماس لويس الذي ما لبث أن تُوفي بعد ذلك – فقد أمرت كل قواربنا المسلحة بالدخول إلى بحيرة إدكو وتحطيم القنجات الموجودة بها لمنع العدو من نيل أية مساعدة مرة أخرى في هذه الناحية».

لم يذكر في الرسالة اسم شيخ مشايخ إدكو، ولكننا بالرجوع إلى زيتون كما ذكرنا عرفنا من هو شيخ إدكو وقتئذ؛ وهو أحمد أحمد صفار، وقد وجدت أن زيتون قد دافع دفاعًا مستميتًا عن شيخ مشايخ إدكو أيام الحملة الفرنسية الذي اتهمته بعض المصادر الفرنسية بالتجسس لصالحهم، وقال زيتون بالنص: «ونحن نستبعد هذه التهمة وننفيها نفيًا قاطعًا عن عمدة إدكو أو شيخها مهما يكن اسمه أو شخصه».

والحقيقة أن شيخ مشايخ إدكو أيام الحملة الفرنسية قد تم إعدامه بقرار من الجنرال منو كما ذكر الرافعي، فمع ازدياد المقاومة الشعبية لجنود الحملة الفرنسية احتشد الأهالي حول رشيد في ٢٠ نوفمبر ١٧٩٨م، فقامت القوات الفرنسية بإلقاء القبض على بعضهم، وكانت الاتهامات الفرنسية جاهزة؛ وعلى رأسها القيام بأعمال عدائية ضد رجال الحملة الفرنسية؛ فأمر منو الذي ازدادت شراسته مما لاقاه من مقاومة شديدة بالقبض على مشايخ إدكو وإدفينا الذين قادوا الأهالي في المقاومة، وأججوا فيهم روح الوطنية والبسالة، وطلب إحضارهم إلى رشيد وقتلهم رميًا بالرصاص بتهمة مقاومة رجال الحملة الفرنسية وتحريضهم للأهالي. وعلى الرغم مما ذكرناه في هذا المقال، فإن مدينة إدكو ما زال يحفل سجلها بكثير من الشذرات التاريخية الأخرى من زيارة السلطان الأشرف قايتباي لها عام ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، حتى زيارة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر للمدينة عام ١٩٥٩م، مرورًا بوجود المعسكر الإنجليزي (الكامب) الذي أقيم بمنطقة البوابة غرب المدينة أثناء الحرب العالمية الثانية، بالإضافة إلى زيارة الملك فاروق لصيد الطيور في بحيرة إدكو، ومرور كثير من العلماء والرحالة من إدكو طريق الولاة واستراحة الغزاة.

حَدَثٌ × صُوَرٍ

زِيارةُ الملكِ عبد العَزيز لمصر

يناير ١٩٤٦م



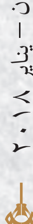
الملك فاروق بالزي العسكري، وعصا المارشالية، وخلفه النقراشي باشا، في حين يقف الملك عبد العزيز وخلفه أحمد حسنين باشا أثناء وصوله لحضور العرض العسكري.



الملك فاروق يستعرض حرس الشرف، وإلى جانبه أحمد حسنين باشا، وخلفه عبد الرحمن عزام باشا، وخلفه النقراشي باشا في استقبال الملك عبد العزيز في السويس.



الملك فاروق يتحدث إلى أحمد حسنين باشا في انتظار الملك عبد العزيز، ويظهر في الخلف عبد الرحمن عزام باشا والنقراشي باشا.

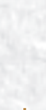




الملك فاروق في صوان استقبال الملك عبد العزيز بالسويس، ويظهر كلٌّ من عبد الرحمن عزام باشا والنقراشي باشا.



استقبال الملك فاروق الأول للملك عبد العزيز ملك السعودية، وخلفهما يظهر أحمد حسنين باشا والنقراشي باشا وعبد الرحمن عزام باشا.





الملك عبد العزيز، وإلى يمينه عبد الرحمن عزام، وإلى يساره النقراشي باشا، يليه الملك فاروق الذي يجلس خلفه أحمد حسنين باشا
أثناء متابعتهم سباق الخيول في ميدان السباق.



الملك فاروق والملك عبد العزيز أثناء متابعتهما لأحد العروض الرياضية بمناسبة زيارتهما جامعة فؤاد الأول.







الملك عبد العزيز جالسًا، وإلى يساره النقراشي باشا.



الملك عبد العزيز، وإلى يساره الملك فاروق.





الملك عبد العزيز والملك فاروق يحضران أحد الاحتفالات المقامة على شرف زيارة الأول لمصر.



الملك عبد العزيز والملك فاروق ورئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي وأحمد حسنين باشا.





الملك فاروق ومن خلفه أحمد حسنين باشا وعبد الرحمن عزام باشا.



سيتروين CITROEN

ها قد أقبل الصيف . فهل يوجد أجمل من النزهة على شواطئ النيل فى الجزيرة أو على ساحل البحر فى الرمل . فى سيارة ستروين ؟ وهى سيارة اقتصادية . جميلة . تجمع كل أسباب الراحة بشكلها الفاخر





هنا ترى جميع أشكال السيارات الفاخرة . المقفلة والمفتوحة

وجميع المعلومات تطلب من

تويلو فنسان وشركاه

الوكلاء الوحيدون فى القطر المصرى

بشارع سليمان باشا نمرة ٢٧ بمصر تلفون عتبه ٤٢٥١ صندوق البريد ١٨٠٢

الورشة :
٣٤ شارع البستان

الفرع في اسكندرية :
٢٧ شارع فؤاد الأول

الإسكافيّ المِصريّ في العصرِ المَمْلوكي

(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

الدكتور محمد جمال حامد الشوربجي



تتناول هذه الدراسة التعريف بأحوال أحد الحرف المهمشة وهي حرفة الإسكافي، وبالرغم من هذه أهمية هذه الحرف والمهن في الحياة الاجتماعية المصرية فإن أصحابها لم يلقوا أي اهتمام من قبل مؤرخي ذلك العصر؛ وذلك لانصراف معظم هؤلاء إلى تسجيل الأخبار السياسية وأحوال السلطان وحاشيته؛ فضلاً عن الباحثين المحدثين. وقد جاءت هذه الدراسة للوقوف على أحوالهم، وسد اللبنات الناقصة في تاريخ المجتمع المصري في العصر المملوكي.

ألقى الثراء الذي تمتعت به مصر في العصر المملوكي من جراء التحكم في طريق التجارة بين الشرق والغرب وبخاصة تجارة التوابل بظلاله على صناعة الأحذية فتنوعت في الأشكال والألوان والخامات. وقد ساعد هذا النشاط التجاري على جلب العديد من المواد الخام وبخاصة الجلود، وإدخال أنواع جديدة من الأحذية؛ استطاع المصريون محاكاتها، والاستفادة منها في إخراج أشكال أخرى.







كما ساعد هذا الثراء على ظهور ما يعرف بالموضة التي كانت أحد العوامل التي أسهمت في نشاط هذه الصناعة. أضف إلى ذلك التنوع العرقي الذي حوته مصر خلال هذه الفترة فكان المصري والشامي والمغربي والأندلسي جنبًا إلى جنب العراقي والإيراني واليوناني والإيطالي... إلخ، وكل هؤلاء قد حملوا معهم ثقافة بلادهم التي كان لها تأثيرها في هذه الصناعة، ومؤكد أن منهم من كان يعمل بصنعة الأحذية، وهؤلاء كان لهم أسلوبهم في الصناعة من حيث الشكل وتركيب الخامات.

عرف المصريون القباقيب الخشبية بكافة أشكالها وألوانها، فارتدت طبقة الخاصة القباقيب التي كانت تُزيَّن بالزخارف، وتُرصَّع بالذهب والفضة والماس والأحجار الكريمة وغيرها، وهي من الأحذية المفضلة للنساء في المنازل، وكان لكل طبقة أو مستوى معين من الشعب النوع المناسب له من هذه القباقيب حسب نوع الخشب المستخدم والزخارف التي تنقش عليه. كما كان للفقراء نوع بسيط من القباقيب. ومن أشهر أنواع القباقيب

التي عرفت في العصر المملوكي «القبقاب الشبراوي» نسبة إلى شبرا الخيام إحدى ضواحي القاهرة.

ولبست النساء هذا النوع لتفادي تجرير أذيال أثوابهن على الأرض، أو لإطالة قامتهن؛ حيث تعلو عن الأرض في بعض الأحيان خمسة عشر سنتيمترًا، وهو ارتفاع القطعتين الخشبيتين الحاملتين للقبقاب، وهذا النوع المرتفع وُجِدَ أيضًا في الحمامات العامة؛ لتفادي الماء المستعمل من الاستحمام والبعد عن النجاسات، حتى الأنواع العادية من القبقاب كانت الملبوس الأساسي في الحمامات العامة، وأماكن الوضوء في المساجد؛ لأنه أكثر تحملاً للماء من الجلد.

كما عرف المصريون الأخفاف التي كانت تصنع من الجلد من ألوان مختلفة؛ ومنها ما اختلط فيها لونان، ويتكون الخف من «الصلال وهي بطانة الخف، والقرطوم منقار الخف الذي في طرفه، والقرنوس خرزة في أعلى الخف، وساق الخف رقبته». وكان الأمراء وأعيان الجند يلبسون في الصيف الأخفاف البيض العلوية، وفي الشتاء الأخفاف الصفر من الأديم الطائفي، ويشدون المهاميز المسقطة بالفضة على الخف، ولا يُكفَّت مهمازه بالذهب إلا من له إقطاع من أجناد الحلقة.

أما ما يلبسه السلطان من الأخفاف فأعتقد أنه كان يلبس ما يلبسه كبار الأمراء فقد خرج السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦–٩٢٢هـ/ ١٥٠١–١٥١٦م) لصلاة عيد الفطر سنة٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م وهو يلبس مشاية من الجلد البرغالي الأبيض، وعليها خف أبيض بمهاميز مكفتة بالفضة البيضاء، شأنه في ذلك شأن كبار الأمراء الذين كانوا ينافسونه في التحلي بأجمل وأغلى الأخفاف. وكان المماليك قبل سلطنة السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨–٦٨٩هـ/١٢٧٩–١٢٩٠م) يلبسون أخفافًا برغالية سوداء، ومن فوقها خف ثانٍ يسمى سقمان، فلما تولى غير أشكال هذه الأخفاف للأحسن، ولا ندري ماهية هذا الشكل الحسن لعدم وصول نماذج منها تعود للعصر المملوكي على حد علمي.

وقد وردت إشارة إلى نوع آخر من الأخفاف كان من متعلقات الخلع السلطانية الخاصة بالوزراء، وهذا النوع كان يسمى الدَّلكش، ويصنع من الحرير. أما أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء فقد كانوا يلبسون الأخفاف من الأديم الطائفي بغير مهاميز، وأعتقد أن المغاربة والأندلسيين كان لهم دور في صناعة هذه الأخفاف في مصر؛ نظرًا لمهارتهم الكبيرة في ذلك النوع، وحاجة المغاربة والأندلسيين المقيمين بمصر إلى الأنواع التي كانوا يلبسونها في بلادهم.

ومن أشهر أنواع الأحذية المستخدمة بكثرة في ذلك الوقت النعل المسمى «سرموزة»، وهو نوع من الأحذية القصيرة التي تخلع عند دخول المنزل، ويطلق عليها عدة مسميات ما هي إلا تحريف للسرموزة وهي «الزرموزة، والسرموج، والجرموق». وكانت تُلبس غالبًا فوق الخف الذي يصنع من جلد ملون، وهذا النوع وإن كان صنع للنساء أو كان أكثر من تلبسه النساء فإن الرجال نالوا حظًّا منه مع بعض تغير.

وبجانب السرموزة والأخفاف والقباقيب وُجِدت أنواع أخرى طويلة الرقبة بها خرز، وأخرى لامعة مذهبة تلبسها النساء، وثالثة مثني جانب منها تحت القدم، وقد نالت نساء السلاطين والأمراء أغلى هذه الأنواع سالفة الذكر ففي مصادرة السلطان للأمير أقبغا بن عبد الواحد سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م بِيع لزوجته قبقاب وخف وسرموزة بـخمسة وسبعين ألف درهم، ولما ماتت خوند بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م بيعت ممتلكاتها بالقلعة فكان منها قبقاب مرصع بأربعين ألف درهم.

وقد شهدت سنة٧٥٠هـ/١٣٤٩م تطورًا كبيرًا في موضة أخفاف النساء وسرموزاتها وزاد الإقبال عليها من قبل النساء حتى وصل سعر الواحدة منها إلى خمسمائة درهم، مما حدا بالوزير منجك اليوسفي بناءً على فتاوى العلماء أن يأمر بمنع الأساكفة من بيع الأخفاف والسراميز الجديدة؛ وأن تعمل كما كانت تُعمل أولاً فامتثل الأساكفة للأمر. لكن الأمر عاد للظهور مرة ثانية سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، فأمر السلطان حسن بن محمد ابن قلاوون في فترة سلطنته الأولى (٧٤٨–٧٥٢هـ/١٣٤٧–١٣٥١م) بإبطال ما أحدثته النساء من لبس الأخفاف الزركش.

وقد استخدم الإسكافيون جميع أنواع الجلود عدا جلد الخنزير الذي كان محرمًا استعماله في هذه الصناعة، فوجدت أحذية من جلود الحمير والبقر والخيل والماعز والذئاب والزراف والتماسيح والأفيلة وغيرها لتناسب جميع الفئات والطبقات. كما كانت مصر تستورد من بلاد الحجاز نوعًا من الجلود يعرف بالأديم الطائفي. كما استعمل هؤلاء المعادن مثل الحديد والنحاس والفضة والذهب في صناعة الأحذية ومعها الأحجار الكريمة التي كانت تصنع منها الفصوص التي كانت تلبس في التجاويف الخشبية، وبالنسبة للذهب والفضة والأحجار الكريمة فلم يكن يقدر على اقتنائها إلا كبار الإسكافيين.

كما استخدموا في صناعة القباقيب عددًا من الأخشاب المتنوعة التي تناسب حال المشتري، واستعمل الإسكافيون بجانب هذه المواد الخام عددًا من الأدوات؛ منها المقص والمسلة



والمنشار والخيوط مختلفة الألوان والمطرقة والسندان الحديدي والقرمة الخشبية التي يثبت عليها السندان. وتتم عليها كثير من عمليات التصنيع. وكان الإسكافي في ذلك العصر يستخدم عددًا من القوالب الخشبية المختلفة كنماذج ليصنع عليها الأحذية، ولا تزال هذه الأدوات يستعملها الإسكافي حتى اليوم.

ولم يقتصر دور الإسكافي على إنتاج الأحذية مختلفة الأشكال والألوان، بل كان يقوم بخياطة وإصلاح القديم منها والذي يطلق عليه في اللغة العامية المصرية البرطوشة، وتلميعه بالصبغات الطبيعة والكيميائية، كل حذاء حسب لونه.

وقد تركز هؤلاء الإسكافيون في منطقة الصاغة تجاه المدرسة الصالحية بخط بين القصرين؛ حيث شكلوا جزءًا من سوق الزجاجين ومنطقة الصليبة بجوار مدرسة الأمير تغري بردي البكلمشي المعروف بالمؤذي، وسقيفة العداسين التي عرفت أيام ابن عبد الظاهر بالأساكفة والبندقانيين.

كما كان لهم مكان بالركن المخلق خلف خانقاه سعيد السعداء، وتواجد فريق منهم في حوانيت قيسارية السلطان بيبرس الجاشنكير (٧٠٨-٧٠٩هـ/ ١٣٠٨-١٣٠٩م) على رأس باب الجوذرية بالقاهرة، وظلوا بها حتى عهد المقريزي (تُوفيَ ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) الذي أمدنا بمعلومات مهمة عن الإيجار الشهري الذي يدفعه هؤلاء؛ وهو ما بين ثمانية إلى عشرة دراهم حسب حالة الحانوت وموقعه. وبالطبع كان الحانوت يشمل في معظم الأحيان مكان التصنيع ومكان البيع؛ حيث يعرض الإسكافي ما ينتجه على واجهة محله لجلب الزبائن.

وهذه الأماكن التي تركز فيها هؤلاء كانت محل عملهم وسكنهم، وهذا ساعد على تنمية وتقوية الروابط الاجتماعية بين أبناء الحرفة سواء بالمجالسة أو المصاهرة، وكل هذا كان يتم تحت رعاية شيخ الطائفة الذي كانت مهمته إدارة وتنظيم شئون الصنعة، والتحدث باسمهم أمام الدولة، وفي هذه الحوانيت تواجد العديد من الصبية الذين جاءوا للتعلم. وتستمر فترة التدريب والتعليم حتى يتقن الصبي الصنعة ويحفظ أسرارها حتى إذا ما أصبح متقنًا لها استقل بذاته، وفتح حانوته الخاص، ودرب من أراد تعلم الصنعة من الصبية.

لم يقتصر وجود صانعي الأحذية على القاهرة بل تواجدوا في كل المدن المصرية؛ وذلك لأنها من الحرف الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها، وقد أشارت النصوص الأثرية التي عُثر عليها إلى تواجد عدد لا بأس به من الأساكفة بمدينة سوهاج بالصعيد.



وقد ذكرت لنا المصادر التاريخية أسماء بعض من امتهن صناعة الأحذية والاتجار فيها حتى أصبح شيخًا لطائفته؛ فكان منهم شهاب الدين أحمد بن عبد القادر النشاوي الحنفي (ت. ٨٨٤هـ/ ١٤٨٠م) الذي مهر في صناعة السرموزة «السراميج» حتى صار معلمًا معتبرًا بين أهل صنعته لكنه ترك الصنعة بعد فترة وانصرف إلى طلب العلم، وإسماعيل بن أحمد بن أبي بكر الأخفافي (ت. ٨٧٨هـ/ ١٤٧٦م) الذي كان وجيهًا بين أرباب حرفته. وممن عمل بهذه الحرفة ثم تركها أحمد بن محمد بن علي ابن شعبان القاهري (توفي في أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي).

وكان بعض هؤلاء على قدر من الثقافة الدينية نتيجة حضوره مجالس العلم فعُرِفَ عن إسماعيل بن أحمد الأخفافي (ت. ٨٧٨هـ/ ١٤٧٦م) بأنه ممن يداوم على حضور مجالس ابن حجر العسقلاني (ت. ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، بجانب اهتمام المحتسب بين الحين والآخر بتعليم هؤلاء وغيرهم بعض السور القرآنية وبخاصة الفاتحة والسور القصار ليقرأوا بها في صلاتهم، وذلك على يد عدد الفقهاء، وكان الفقيه يأخذ على من يعلمه فلسين كما حدث سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م.

كما عُرِفَ عن الإسكافيين أن لهم لغتهم الخاصة التي لا يعرفها إلا أبناء الصنعة شأنهم في ذلك شأن كثير من الطوائف الأخرى، بعضها خاص بأسماء المعدات والجلود وطريقة التصنيع، وبعضها لغة سرية بينهم عبارة عن مجموعة كلمات ذات مدلول مغاير للمدلول الحقيقي للكلمة، وذلك فضلاً عن لغة الصنعة المرتبطة بالمواد الخام والأدوات ونحو ذلك.

وفيما يخص أسواق الأحذية في ذلك العصر فقد عُرف لهم سوق هو جزء من سوق الحريريين بمنطقة الصاغة تجاه المدرسة الصالحية بخط بين القصرين؛ ظلوا به مدة حتى عَمَّر الأمير يونس النوروزي الدوادار قيساريته بعد سنة ٧٨٤هـ/ ١٤٨٢م فنقل منه بياعي أخفاف النساء ونعالهم وأسكنهم بحوانيتها الخارجية. ولم تقتصر تجارة الأخفاف على الوسط المحلي بل كانت هناك عمليات استيراد لبعض الأنواع المشهورة في ذلك الوقت؛ مثل «الأخفاف البرغالي» بألوانها الأبيض والأسود من منطقة بلغاريا بالقرب من روسيا. كما كان للتجارة المغربية دور في إدخال العديد من الأحذية المغربية مختلفة الأشكال والألوان، وساعد على نشاط هذا النوع كثرة المغاربة والأندلسيين بمصر.

وعن سياسة الدولة تجاه هؤلاء فيمكن تلخيصها في ثلاثة عناصر هي: الاحتساب، والرمي، والمكس، فقد وكلت الدولة



إلى المحتسب أمر الإشراف على هذه الحرفة، وقد وضع المحتسب على صانعي الأحذية عدة ضوابط في صناعتهم، ونبه عليهم وحذر من مخالفتها، ومنها: «ألا يكثرون حشو الخرق البالية فيما بين البشتيك والبطانة، ولا بين النعل والظهارة، وكذا لا تحشى بخبز الفجل، ويشدون حشو الأعقاب، ولا يشدون نعلاً قد أحرقته الدباغة، أو لم يتم دبغه، وينبغي أن يحكموا إبرام الخيط، ولا يطولونه أكثر من ذراع؛ لأنه إذا طال أكثر من ذلك تقشر فانتقض إبرامه وضعف عن الجذب، ولا يخرزون بشعر الخنزير بل يجعلون عوضه ليف أو شارب الثعلب، ولا يمطلون أحدًا بمتاعه إلا أن يحددوا لصاحبه يومًا معلومًا، فإن الناس يتضررون بالتردد إليهم وبحبس الأمتعة عنهم، ولا يعملون الورق واللبد وأشباهه في أخفاف النساء فإنه قبيح وشهرة لا تليق بالأحرار»، ولهذا يمنع المحتسب من عمله ولبسه.

كما كان المحتسب ينهى ويحذر العاملين بالحمامات العامة من أن يسمحوا للأساكفة بغسل وتنظيف الجلود في الحمام؛ لأن الناس يتضررون من رائحة الدباغة، وإذا كان تعيين محتسب لمراعاة شئون هذه الحرف أمرًا جيدًا لإصلاح المعوج فيها، فإن مسألة رمي الجلود ونحوها عليهم وبضعف السعر في كثير من الأحيان كان لها أسوأ الأثر في هذه الحرفة؛ لأنها ستدفع هؤلاء إلى الغش في الصناعة ورفع سعر المنتج. والغريب أن المحتسب مهمته منع هاتين النقطتين فيا الله كيف تضع الدولة هؤلاء بين مطرقة الرمي وسندان الاحتساب، وكأنها تقول لهم انتحروا، لهذا نرى قومًا من هؤلاء يدعون على أنفسهم بالموت وأن يخلصهم الله مما هم فيه.

ومن الأمثلة على ذلك ما رماه ديوان الدولة برئاسة موسى بن يوسف المعروف بابن كاتب غريب (ت.٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م) – القائم بأعمال الوزير– على الأساكفة من الجلود التي خرجها من المدابغ في رمضان سنة ٨٧٥هـ/ فبراير ١٤٧٠م، فوزعها على أماكنهم بين القصرين والصليبة بضعف سعر السوق بالإضافة إلى ما غرموه لأعوانه. أما أساكفة بين القصرين فأخذوا الجلود ودفعوا ما قرر من مال وصبروا واحتسبوا.

وأما أساكفة الصليبة فكانوا أكثر حكمة؛ إذ أخذوا الجلود منهم ووعدوهم ببعض الثمن فلما أصبحوا انطلقوا إلى السلطان ليشكوا من الظلم الذي حاق بهم فردهم خدام الحوش السلطاني، فصعدوا أعلى الجبل المقابل لحوش السلطان واستغاثوا، فسأل السلطان عن أمرهم فأخبروه بحالهم، وأن ابن غريب رمى عليهم بزيادة عن السعر فأذاهم وضرهم، فغضب السلطان على ابن غريب، وأمر الأمير يشبك بن مهدي بأن يرد عن الأساكفة ما رمي عليهم من جلود ولا يأخذون منه شيئًا، فرد هؤلاء الجلود إلى مباشري الدولة.

إضافة إلى ما سبق قامت الدولة بفرض عدد من المكوس على هؤلاء؛ منها مكس الجلود الذي أبطله السلطان برقوق في سنة٧٩١هـ/ ١٤٨٩م ثم عاد مرة أخرى، ثم أبطل في شوال سنة ٨٥٣هـ/ نوفمبر ١٤٤٩م من سوق النعال بالركن المخلق بين القصرين – وكان به قيسارية للجلود أنشأتها خوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان (ت. ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) – ومن سائر الأسواق.

أما مكس الأخفاف فكان يفرض فيه على كل تاجر أربعمائة درهم فلوس، لكنها زادت على يد الوزير ابن غريب، فوقف تجار سوق الأخفاف في شهر جمادى الآخرة سنة٨٧٦هـ/ نوفمبر١٤٧١م للسلطان بعد أن قدموا إليه شكوى تتضمن أن الوزير استجد عليهم مظلمة؛ وهي أنه كان عليهم في كل شهر أربعمائة درهم فلوس فصار يأخذها ثلاثة آلاف درهم، فأمر السلطان الوزير أن يجريهم على عادتهم، فاتجهوا إليه فما وافق لكنه خففها إلى ألف وخمسمائة درهم، فوقفوا للسلطان مرة أخرى، فأبطل مكس الأخفاف مطلقًا. وفي عهد السلطان قانصوه الغوري صدر مرسوم في سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م بمنع التعرض لعدد من الحرف؛ منهم الإسكافيون بسوهاج وكتب ذلك على لوح رخامي علق في الجامع العتيق المعروف بالفرشوطي بسوهاج.

وبالإضافة إلى هذه السياسة الجائرة شكَّل غلاء أسعار المواد الخام عاملاً في تدهور حال هذه الصناعة وبخاصة في العصر المملوكي الجركسي(٧٨٤–٩٢٣هـ/١٣٨٢–١٥١٧م). فكثيرًا ما يرتفع سعر هذه المواد كما حدث في سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م؛ حيث بلغ الرطل من الحديد المعد للاستخدام إلى عشرين درهمًا، أما النحاس فوصل الرطل منه إلى أزيد من ثلاثين درهمًا، ووصلت التطبيقة من النعال إلى سبعين درهمًا.

أضف إلى ذلك ارتفاع أجور الصناع نتيجة اضطراب السياسة النقدية للدولة، وهذا بالطبع كان له تأثيره على سعر الأخفاف والنعال، ولم تكتف الدولة بكل ما سبق بل كانت تأمرهم بالمساهمة في أعمال الحفر الخاصة بالنيل بالمال والرجال كما حدث في سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٤م، علاوة على تعرض أسواق الأخفاف وحوانيت صُنعِهَا للنهب والسرقة في فترات الاضطرابات التي كانت هي السمة البارزة للعصر المملوكي الجركسي.


هذه المصانع المصرية العظيمة!
تسير دائما الى الأمام
بفضل اقبال السيدة
المصرية على شراء
منتجاتها
شركة مصر للغزل والنسج
إحدى مؤسسات
بنك مصر

غُوردُون بَاشا
وَالنُّقود الورقيّة في السُّودان

محمد مندور



ذاكرة مصر



٤٠

كان الذهب في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وفي ظل نظام الذهب النقدي يعد بمثابة معيار للقيمة الدولية، ووسيلة لدفع أية أرصدة يتعذر تسويتها في سوق النقود الأجنبية. فقد كانت الأوراق المالية وودائع المصرف في تلك الفترة قابلة للتحويل بسهولة إلى ذهب.

والأوراق النقدية كانت في بدايتها عبارة عن وعد بإعادة دفع المنصوص عليه ذهبًا كان أو فضة لمودع مذكور اسمه، ثم تطورت تلك الأوراق النقدية وأضيفت عليها عبارة أو لحامله بعد الاسم، ومن ثم باتت صكوكًا تنتقل من يد إلى يد كبديل للعملات. وقد تطورت الأوراق النقدية – النقود الورقية – وشاع إصدارها في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. ويرجع إليها الفضل في اعتياد الشعوب على استعمال قصاصات من الورق تقبل في التداول، لا على أنها تمثل تعهدًا بدفع مبلغ معين من الذهب أو الفضة، بل على أنها في حد ذاتها أداة للاستبدال ووسيطًا للتبادل. وبذلك فإن تلك المرحلة من الأوراق النقدية قد خلقت بيئة صالحة لتداول الأنواع المختلفة من النقود الورقية، كما شجعت الحكام على إصدارها كلما اشتدت بهم الحاجة إلى المال.

وتنقسم النقود الورقية حسب تقييم علماء الاقتصاد الحديث إلى ثلاثة أقسام:

- نقود ورقية قابلة للصرف (نقود ورقية وثيقة): يمكن لحاملها أن يستبدل بقيمتها نقودًا معدنية مباشرة، كأوراق المصارف، ويقال لها أوراق بنكنوت أو العملة الورقية الائتمانية Monnaie de papier fiducidaire؛ لأنه مكتوب عليها وعد بالوفاء بالمعدن النفيس لدى تقديمها. ولا يصدر هذه الأوراق إلا بنك واحد في الدولة بعد أخذه امتيازًا من الحكومة. ويشترط أن يكون عنده كمية من المعدن النفيس (الذهب)، وتصرح له الحكومة بأن يصدر أوراقًا من البنكنوت أكثر مما عنده من المعدن.

- النقود الورقية الممثلة: وهي عبارة عن النقود الورقية التي تمثل قيمتها الاسمية مقدارًا من الذهب أو الفضة مودعًا في خزانة الدولة أو بنك إصدار الأوراق المصرفية. وفي هذه الحالة يتم تداول الذهب أو الفضة دون أن ينتقل من الخزانة، وتصدر الولايات المتحدة من هذه الشهادات منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/ النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي وتسمى Gold & Silver Certificates. وهي تستعمل لسهولة حملها ورغبة في توفير ما يفقد من النقود المعدنية؛ بسبب كثرة التداول. وتوصف هذه النقود بأنه ليس فيها من النقود الورقية إلا شكلها، أو أنها نقود معدنية يتم فيها التداول على شكل صكوك ورقية.

- الأوراق غير القابلة للصرف: هي الأوراق التي تصدرها الحكومة في أوقات الضيق المالي، ولا تتعهد بصرفها فضة أو ذهبًا في زمن العسر.

وتندرج الأقسام الثلاثة للنقود الورقية – السالفة – تحت مسمى النقود الائتمانية، وتتميز بأن قيمتها النقدية تتجاوز بكثير قيمة ما قد يكون للمادة التي صنعت منها كسلعة. فشرط النقود الائتمانية كما أقره أساتذة الاقتصاد هو انقطاع الصلة بين قيمتها الاسمية كنقد وقيمتها التجارية كسلعة. وقد جاء التعامل بها قديمًا مصحوبًا في المعتاد بوعد من جانب مَن أصدرها (الدولة أو البنوك) بدفع قيمتها بوحدات نقد سلعية لدى الطلب. ومن هنا يطلق عليها اصطلاح النقود الائتمانية. وتعتمد هذه النقود فيما تتمتع به من قبول عام في المعاملات على عنصر الثقة في قابليتها للصرف بوحدات نقد سلعية حينما كانت قابلة للصرف على ذلك النحو، أو في مجرد قبول الأفراد لها في التعامل.

والمتتبع لتاريخ النقود الورقية في الدولة العثمانية يجد أنه قد جرت أول محاولة لإصدار النقود الورقية في عهد السلطان عبد المجيد (١٢٥٥–١٢٧٧هـ/ ١٨٣٩–١٨٦١م) ، وكانت تلك النقود في حكم السندات أكثر من أي شيء آخر. وأولى هذه النقود الورقية سميت «قائمة لر»، وكانت بغير أرباح. وقد طبعت عام ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م. وكانت عبارة عن جزازات صغيرة من الورق من فئة العشرة روش والعشرين قرشًا. ثم كثر طبعها في عهد السلطان عبد العزيز (١٢٧٧–١٢٩٣هـ/ ١٨٦١–١٨٧٦م)، فكانت زيادتها في التداول النقدي هي السبب في تدني قيمتها. وفي عام ١٢٧٨هـ/١٨٦١م شعرت الدولة بالحاجة إلى سحب القوائم من التداول؛ لتسببها في ارتفاع سعر الليرة المجيدي إلى ٣٥٠ قرشًا، وقد بات في نهاية تلك العملية أن انخفضت الليرة الذهبية المجيدي إلى مائة قرش في ١٦ ربيع الآخر ١٢٧٩هـ/ ١٣ سبتمبر ١٨٦٢م.

وعندما اعتلى السلطان عبد العزيز العرش، جرى الاتجاه إلى طبع القوائم من جديد بقصد تحسين الوضع المالي. وكان الأساس



الذي وضعه هو أن تقبل القوائم من الخزانة، ومن صناديق المال في تسديد الضرائب، بقصد أن تكون ندًّا في التعامل مع الليرة الذهبية.

وعلى الرغم من ذلك، بدأت القوائم بعد فترة تفقد قيمتها أمام الليرة (الجنيه) الذهبية بسبب انتشار تزويرها، مما عرض الخزانة العثمانية لأضرار جمة.

فصدر جراء ذلك في ربيع الآخر ١٢٩٧هـ/ مارس ١٨٧٩م قرار بجمعها من الأسواق، وجرى إمحاؤها في شهر ذي القعدة ١٢٩٧هـ/ أكتوبر من نفس العام.

وعلى نهج نفس التجربة العثمانية في إصدار النقود الورقية، صار غوردون في سبيله لإصدار النقود الورقية، وقت توليه حكمدارية الجهات السودانية للمرة الثانية. فقد أدت الظروف داخل مدينة الخرطوم وقت حصار جيش المهدي إلى توقف النشاط التجاري بالسوق، وفراغ خزانة الحكومة من النقود. فأصدر غوردون في آخر رجب ١٣٠١هـ/ إبريل ١٨٨٤م أوراقًا نقدية من فئات مختلفة، وقابلة للتعامل على أن يتم صرفها بعد القضاء على الثورة المهدية من خزانة الخرطوم أو القاهرة.

ووجد غوردون صعوبة في حمل الأهالي على تداولها. و لم تحل هذه العقدة إلا بعد أن تعامل بها التجار المصريون فتبعهم التجار الآخرون. ومع ذلك لم يخل الأمر من تقليدها على يد بعض التجار، مما تسبب في خفض قيمتها. الأمر الذى ترتب عليه قيام دوريات قوية من رجال الحكومة للتجول في المدينة لقمع هؤلاء التجار، ولوقف الصدام الذي كان يحدث بينهم وبين الجند بسبب أخطار التعامل بها.

ويلاحظ على هذه النقود التي أصدرها غوردون، وقد أطلق عليها عملة البون الورقية أنه قد كتب على كل ورقة عبارة نصها كالتالي: «هذا المبلغ مقبول ونجري دفعه من خزينة الخرطوم أو مصر بعد مضي ستة شهور من تاريخه ٢٥ إبريل سنة ١٨٨٤م». ثم رقمها بأرقام مسلسلة، ووضع عليها ختمه الذي يستعمله في محررات الحكمدارية. ثم وضع إلى شمال الختم مباشرة، اسمه ممهورًا بالأحرف العربية، وإمضاءه بالأحرف الإنجليزية.

وقد وضع غوردون ختمه والإمضاء، على سبيل التأكيد والتأييد؛ بغرض ضمان سريان هذه العملة الورقية وقبولها بين الناس، ومنعاً لمحاكاتها وإصدار ما هو مزور عليها. إلا أنه مع كل الاحتياطات التي وضعها غوردون على نقوده الورقية فقد اهتدى البعض إلى سبيل لتزويرها. إذ تمكن اثنان في السودان؛ هم: صابر وأحمد ابنا عبد الغني السلاوي من تقليد هذا النقد، بأن قلدوا مكتوب وختمَ غوردون واسمه وإمضاءه بالنقش على القرع، وطبعًا أوراق البون كأوراق غوردون.

وقد توقف التعامل بهذه النقود الورقية التي ضربها غوردون فور اشتداد الحصار المهدوي حول الخرطوم إلى أن أُبطلت نهائيًّا مع دخول جيش المهدي وسقوط الخرطوم. لتظل هذه التجربة أولى محاولات نظام حكومي في السودان لطبع النقود الورقية.

وبعد انتهاء الحصار قام أحد الضباط الإنجليز بشراء هذه الأوراق بأقل من قيمتها الاسمية من التجار؛ أملاً في صرف قيمتها الحقيقية من الخزانة المصرية، ليحقق بذلك ربحًا وفيرًا. إلا أن الخزانة المصرية رفضت صرف قيمتها له. فقام هذا الضابط الإنجليزي بإقامة دعوى ضد الحكومة المصرية أمام المحاكم المختلطة مطالبًا بقيمة تلك العملات، غير أنه تُوفِّيَ قبل الفصل في دعواه، وقضت المحكمة المختلطة بصرف تعويض له عن جزء من قيمة هذه الأوراق، تم صرفه لورثته.

وتعد أذون الخزانة التي أصدرها غوردون باشا سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م أول عملة ورقية لمصر والسودان. وقد أمر غوردون باشا بإصدار ما قيمته ١٦٨,٠٠٠ (مائة وثمانية وستون ألف جنيه مصري). إلا أنه وقع بالفعل على ٥٠,٠٠٠ (خمسين ألف جنيه فقط)؛ حيث استولت قوات المهدي على الخرطوم، وقُتِل غوردون باشا قبل أن يتمكن من استكمال التوقيع على الإصدار.

وقد صدرت هذه العملات الورقية في إحدى عشرة فئة هي:

- واحد قرش ميري
- خمسة قروش ميرية
- عشرة قروش ميرية
- عشرون قرشًا ميريًّا
- ماية قرش ميريً
- خمسمائة قرش ميريً
- ألف قرش ميري
- ألفا قرش ميري
- ألفان وخمسمائة قرش ميري
- خمسة آلاف قرش ميري
- خمسون جنيهًا ميريًّا



وأندر هذه الفئات هي فئة واحد قرش؛ حيث لم يهتم الضابط الإنجليزي بشرائها من تجار السودان لصرفها من الخزانة المصرية؛ وذلك لضآلة قيمتها. وكذلك فإن الأوراق فئة الخمسين جنيهًا نادرة؛ لقلة المصدر أصلاً.

وأهم خصائص هذه الأوراق أنها:

– مصنوعة من ألياف الكتان وأكثر سمكًا من البنكنوت الحالي.

– هذه الأذون/ النقود الورقية كتبت على وجه واحد يدويًّا بالحبر الشيني، وتحمل ختم غورودن باشا وختم حكمدارية عموم السودان Gouvernorat général du Soudan بالفرنسية والعربية.

– أبعاد الورقة لجميع الفئات ١٠٧ × ٦٣ مم.

– الأوراق من هذا الإصدار التي تحمل توقيع غوردون باشا قيمتها أعلى من الأوراق المصدرة بدون توقيع.

– ومن أهم القطع خمس قطع تحمل توقيع غوردون وعليها ختم حكمدارية السودان وتاريخ إصدارها يوم ٢٥ إبريل ١٨٨٤م. وتحمل القيمة النقدية داخل مستطيل أعلى النقد الورقي. وأولى هذه القطع من فئة مائة قرش ميري، والثانية فئة خمسمائة قرش ميـري، والثالثة من فئة ألف قرش ميـري، والرابعة فئة ألفيـن وخمسمـائة قرش ميـري، أما الخامسة من فئة خمسة آلاف قرش ميـري.




كلاكيت ثاني مرة
أسعار المعيشة
في القاهرة
مقابلة بين الماضي والحاضر
(مقال منشور في صحيفة السياسة في ١٩٢٥م)

إذا كثرت النقود في بلد قلت قيمتها الشرائية، ونعبر عن ذلك عادة بقولنا إن أسعار الحاجات أو العروض غالية. وإذا قلت النقود زادت قيمتها الشرائية ونعبر عن ذلك بقولنا إن أسعار العروض رخيصة. وأقرب شاهد يحضرنا على الحالتين بمصر وسوريا. ففي مصر النقود كثيرة بفضل عظم الثقة المالية والعروض غالية لأنها مطلوبة، ولكن المصري لا يشكو الغلاء لأنه يجد عملاً يعمله أو أجرًا يوازي ذلك العمل. أما في سوريا فالنقود فيها قليلة بفضل الاحتلال الفرنسي وضعف الثقة المالية؛ فالعروض رخيصة لأنها غير مطلوبة والسوري لا يكربه هذا الرخص لأنه لا يجد عملاً يعمله وحيث لا عمل فلا أجر ولا مال. والأجر الذي يأخذه إذا وجد عملاً يعمله متغير القيمة كل يوم، فهو لا يعلم اليوم إذا كان في كيسه مائة قرش كم تكون قيمتها غدًا أتسعين أم ثمانين أم خمسين أم أقل من ذلك. فقد أخبرنا الذين صيفوا في لبنان في السنة الماضية أنهم كان يصرفون الجنية المصري يومًا بمبلغ ٣٠٠ قرش سوري ويومًا بمائتين وتسعين ويومًا بمائتين وستين. وأخبرنا الذين صيفوا هناك هذا العام أنهم صرفوا الجنيه المصري بمبلغ ٣٥٠ قرشًا وبمبلغ ٣٢٠ أو أقل أو أكثر على حسب حالة الفرنك من الصعود أو النزول.

وتسمع الذين يأتون من أهل سوريا إلى هذه الديار يشكون الغلاء هنا، ويقابلونه برخص الحاجات في سوريا، فيقولون لك مثلاً إن واقة العنب كانت تباع هناك بأربعة مليمات وهي تباع هنا بأربعة قروش وستة وثمانية. فإذا قلت لهم وما الفائدة أن تكون الأشياء رخيصة في بلد لا عمل ولا مال فيه، قالوا هذا صحيح لا عمل ولا مال هناك فيا ليت العروض كانت غالية، وكان في أيدي الناس مال يشترونها به.

وأعظم فرق بين العهد العثماني الماضي والعهد الفرنسي الحالي في سوريا؛ أن العروض كانت في العهد العثماني رخيصة كلها إلى حدٍّ لا يصدق وكانت النقود التي في أيديهم ذهبًا وفضة قيمتها الشرائية عظيمة. وكانت الأجور التي يحصل العمال عليها كبيرة القيمة الشرائية على قلتها. أما الآن فبعض الحاجات رخيصة وهو ما كان نتاج البلاد أما الباقي فغالٍ والأشغال ليست أكثر رواجًا مما كانت عليه في العهد العثماني. والنقود إما نيكل وإما ورق تابع للفرنك الفرنسي والأجور التي ترد البلاد من الخارج. والأحكام ليست أحسن مما كانت في العهد الماضي إن لم نقل أنها شر منها.

راجت سوق القطن المصري في هذه الأيام الأخيرة، فشعر الناس برواجها في غلاء بعض الحاجات من لحم وبيض وأرز وغيرها. وهذا الغلاء طبيعي سببه زيادة النقود المتداولة في الأيدي وإقبال الناس على الشراء وكل شيء يزداد الطلب عليه تزداد قيمته. ولا تكاد تسمع شكوى من الغلاء؛ لأن الذي يكون في يده مال لا يهمه بعد ذلك كثيرًا أن يدفع بالعروض التي يشتريها قرشًا أو قرشين زيادة على ما كان يدفع بها أيام ما كان ميسه صفرًا من المال.

وتبع رواج سوق القطن رواج الأوراق المالية؛ لأنها لم تخرج عن كونها عرضًا من العروض فلما اجتمع المال في الأيدي أقبل الناس على استثماره بشرائها فارتفعت أسعارها. ففي أسبوع واحد من ٩ إلى ١٦ نوفمبر ارتفعت أسهم هليوبوليس مثلاً من ١٧٣ فرنكًا إلى ٧٨٤ أي ٢٤ فرنكًا، وهكذا في كثير من الأوراق المالية وغيرها.

وسنحاول في هذه العجلة تحقيق أرقام الحكومة التي تقدر بها أسعار المعيشة في القاهرة بالنسبة إلى ما كانت عليه قبل الحرب معتمدين في ذلك على اختيارنا الخاص وراجعين إلى أرقام بين أيدينا عن متوسط أسعار الحاجات في الثماني سنوات التي سبقت الحرب أي من سنة ١٩٠٦م، سنة الضائقة المالية المشهورة إلى سنة ١٩١٤م سنة الحرب المشئومة. وسنقابل متوسط الأسعار في تلك الثماني سنوات بمتوسط الأسعار في الثماني سنوات من سنة ١٩١٥م إلى سنة ١٩٢٣م.

ولا ريب أن مما يجعل أرقامنا دقيقة الحساب وذات قيمة خاصة في هذه المقابلة كون الشاري والبائع في الحالتين واحدًا أي كنا نشترى حاجاتنا في هذه المدة كلها من الباعة أنفسهم فلا يقال أننا كنا نغبن بتغيير الباعة في أزمان مختلفة. أما البائع الواحد فلا يعقل أنه غشنا في المدة الأولى ثم انقطع عن الغش في الثانية ولا أنه غبننا في الثانية دون الأولى، بل إنه إن كان هناك غبن فقد جرى علينا من الأول إلى الآخر. ولكن ظهر لنا من المقابلة مع الغير أننا لم نغبن في شيء غبنًا يذكر وأن معاملتنا في السوق متوسطة يصح اتخاذها نموذجًا للمقابلة الصحيحة.

لا بد لنا قبل إيراد الأرقام المقابلة بين أسعار المعيشة في القاهرة الآن وأسعارها قبل الحرب عامة أو بين سنة ١٩٠٦م وسنة ١٩١٤م خاصة أن نلاحظ أن تقديرنا يتناول الطبقة الوسطى دون العليا والدنيا. أما العليا فلأنه يدخل في نفقاتها جزء كبير مما يسمى بالكماليات أو الأشياء التي يستغنى عنها في المعيشة العادية وهذه الكماليات لا يُحسب لها حساب كبير في الأسواق التجارية؛ لأن تصريفها مقصور على فئة قليلة بالنسبة إلى المجموع الأكبر.





وأما الطبقة الدنيا فغاية ما يقال فيها أن الغلاء لم يمسسها كثيرًا؛ لأن المواد التي تستهلكها قليلة العدد وقد عادت أثمانها فهبطت إلى نحو ما كانت عليه قبل الحرب وهي الحبوب والبقول والجبن والزيت والأنسجة القطنية. وليسمح لي بالقول إن الفقير يعد اللحم في بلد مثل مصر من الكماليات فهو لا يأكله إلا في النادر ولا يحسبه بين المواد التي عليها قوام معيشته. فضلاً عن أن أكله لا يلائم الصحة في هواء مصر المعروف، وعليه فكلما زاد المرء تأنقًا في أكله وشربه ولبسه زاد متوسط نفقته. وهذه الزيادة لا تهم الغني ذا الموارد الواسعة عشر معشار ما تهم متوسط الحال؛ لأنه مضطر إلى الاقتصاد ما أمكنه ليطابق بين دخله وخرجه.

وأهل الطبقة المتوسطة يمكن قسمتهم أيضًا ثلاثة أقسام أدنى ومتوسط وأعلى، كما يمكن قسمة الأغنياء والفقراء كذلك وقد يكون بين طرفي كل طبقة بون شاسع حتى كأنهم لا ينتمون إلى طبقة واحدة فالذي راتبه ٢٠ جنيهًا في الشهر مثلاً يمكن وضعه في أدنى الطبقة الوسطى، والذي راتبه ٤٠ جنيهًا أو ٥٠ جنيهًا في متوسطها، والذي راتبه ٥٠ إلى ١٠٠ في أعلاها. فهم داخلون في الطبقة الوسطى مع أن الفرق في رواتبهم كبير. وإذا لم يصح حشر الرجل الذي راتبه ٢٠ جنيهًا في أعلى الطبقة الفقيرة كذلك لا يصح حشر ذي المائة جنيه في أدنى الطبقة الغنية إلا بتساهل كثير.

ولا نبحث في تقديرنا هذا فيما يرون من أن رطل السمن كان يباع بقرشين والعشرين بيضة أو أكثر بقرش أو نحو ذلك، فربما كان ذلك صحيحًا منذ ٤٠ سنة، ولكن اختبارنا واختبار غيرنا منذ ٢٥ سنة إلى الآن دلَّ على أن حاجات المعيشة أو ضروراتها ليست أغلى الآن بكثير مما كانت عليه قبل هذا العام إلا أشياء قليلة منها.

وقد وضعنا الجدول الآتي بأشهر حاجات الرجل المتوسط في الطبقة الوسطى. ولما كان كل ما يهمنا في هذا التقدير ضبط الأسعار لم نعنَ بكتابة مقادير الأصناف في الخانة الأولى. فقد قدرنا الخبز مثلاً بالأقة واللحم والسمن بالرطل والغاز بالصفيحة والبيض بالدستة والملابس بالقطعة، كما تباع كلها وهذا لا يقدم في الحساب ولا يؤخر كما لا يخفى.

الأصناف	متوسط الأسعار من ١٩٠٦م إلى ١٩١٤م (بالمليم)	متوسط الأسعار من ١٩١٥م إلى ١٩٢٣م (بالمليم)	الأسعار الآن (بالمليم)
الخبز	١٨	٢٥	١٨
السمن	٥٠	١٢٠	٨٥
اللحم	٣٥	٩٠	٦٥
البيض	٢٠	٤٠	٤٠
الأرز	٢٢	٣٢	٣٠
القطاني – العدس	١٥	٣٠	٢٠
الزبيب	١٠٠	٢٠٠	١٤٠
السيرج	٣٠	٥٠	٨٠
البترول (الغاز)	١١٠	٢٥٠	١٢٥
اللبن	١٠	١٥	١٥
الجبن	١٥	٣٥	٣٥
البقول – البطاطس	١٠	٢٠	١٥
السكر	٢٥	٦٥	٤٨
الفاكهة – العنب	٤٠	٧٠	٧٠
البدلة	٤٠٠٠	٦٠٠٠	٦٠٠٠
البفتة	١٥٠٠	٣٥٠٠	٢٥٠٠
الحذاء	٨٠٠	١٧٠٠	١٢٠٠
الطربوش	٢٦٠	٤٥٠٠	٣٥٠٠
أجرة البيت	٦٠٠٠	٨٠٠٠	٨٠٠٠
المجموع	١٣٠٦٠ مليمًا	٢٤٦٧٢ مليمًا	٢١٩٤٦ مليمًا

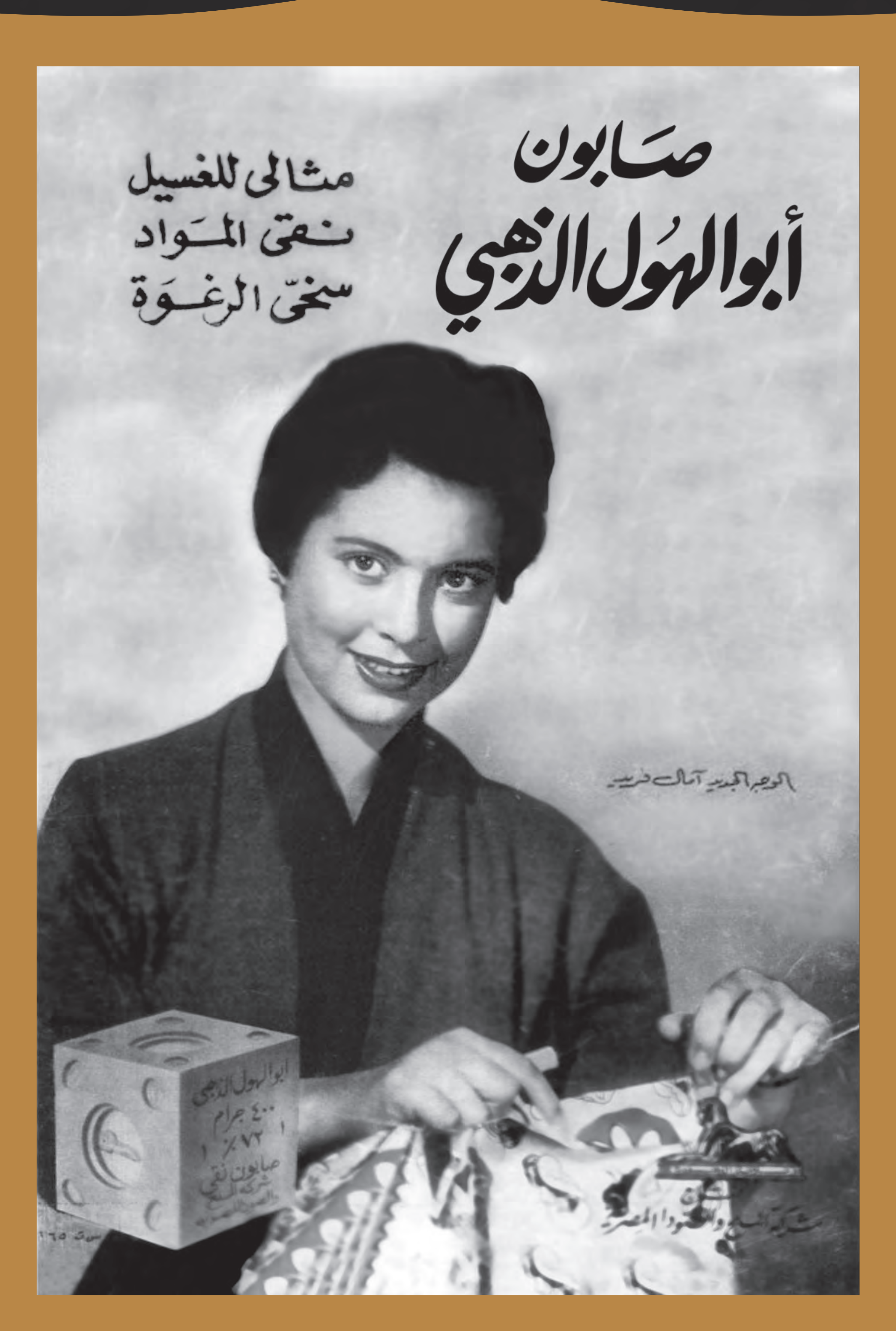


أي ما كان يشترى بمبلغ ١٣,٦٠ مليمًا في متوسط المدة من عام ١٩٠٦م إلى ١٩١٤م كان يشترى بمبلغ ٢٤,٦٧٢ مليمًا في متوسط المدة من عام ١٩١٥م إلى ١٩٢٢م ويشترى بمبلغ ٢١,٩٤٦ مليمًا هذه السنة. وبالحساب التقريبي أن ما كان يشترى بمبلغ ١٣ جنيهًا في متوسط المدة الأولى كان يشترى بمبلغ ٢٤ جنيهًا في متوسط المدة الثانية ويشترى بمبلغ ٢١ جنيهًا هذه السنة. ولكن لما كنا نرمي إلى ضبط الحساب على قدر الإمكان فقد حولنا هذه الأرقام إلى نسبة مئوية فظهر لنا بالحساب الدقيق أن ما كان يتشرى في المدة الأولى بمائة بات يشترى في المدة الثانية بمبلغ ١٨٨ وفي السنة الجارية بمبلغ ١٦٨. وبعبارة أخرى فإن أسعار الحاجات ارتفعت في المدة الثانية ٨٨ في المائة عما كانت في المدة الأولى وهبطت الآن إلى ٦٨ في المائة. أي أن ما كان يُشترى قبل الحرب بقرش صاغ يشترى الآن بسبعة عشر مليمًا على التقريب. فتقدير الحكومة لأسعار الحاجات قريب من الصواب، ولكنه ليس دقيقًا.

عزيزي القارئ من الجدول المتقدم أيضًا أننا أهملنا فيه بعض الحاجات؛ إما لضيق المقام، وإما لأن الفرق بين أسعارها الحالية والماضية لم يتغير تغييرًا يذكر في النسبة المئوية. فتركنا ذكر النور الكهربائي مثلاً والقهوة والشاي وأجرة الترام وغيرها مما تزيد أسعاره الحالية نحو الربع على ما كانت عليه قبل الحرب. وقد أخذنا البطاطس نموذجًا للبقول والعنب نموذجًا للفاكهة والعدس نموذجًا للقطاني، واكتفينا بها لأن أسعار سائر البقول والأثمار والقطاني تغيرت على نسبة تغير هذه من صعود أو هبوط.

والذي نحسبه أن القسم الأكبر من موظفي الحكومة من متوسطي الطبقة الوسطى أي الذين رواتبهم بين ٢٠ و ٥٠ جنيهًا؛ فإذا كان ذلك فإن قطع العلاوات عنهم جاء قبل أوانه قليلاً.





صابون
أبوالهول الذهبي
مثالى للغسيل
نقى المواد
سخىّ الرغوة
الوجه الجديد آمال فريد
ابو الهول الذهبي
٤٠٠ جرام
٧٢ ٪
صابون نقي



ممتاز نصار

برلماني من الطراز الأول

(١٩١٢-١٩٨٧م)

مصطفى محمود علي جمعة

مرت مصر عبر تاريخها البرلماني الذي بدأ في عام ١٨٦٦م، وهو العام الذي أنشئ فيه مجلس شورى القوانين؛ بالعديد من الشخصيات البرلمانية الفذة، التي تركت أثرًا كبيرًا على الساحة السياسية، وكان لها دور مُهم في البحث عن مَواطن الخلل والفساد ومحاولة علاجه، بيد أنَّ هذه الشخصيات البرلمانية ظهرت بقوة خلال الحقبة الليبرالية في الفترة من ١٩٢٣م إلى ١٩٥٢م؛ حيث شهدت هذه الفترة برلمانًا قويًّا بأعضائه وأحزابه من أمثال سعد زغلول، وأحمد قرشي باشا وغيرهما. وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م، تشكَّل برلمان يختلف عن سابقه من عدة وجوه، غير أنَّ شخصيات هذا البرلمان وفئاتها الاجتماعية كانت مغايرة عن البرلمانات السابقة؛ ففي مجلس ١٩٧١-١٩٧٦م، بزغت عدة شخصيات برلمانية لفتت الأنظار إليها، كان أهمها على الإطلاق ممتاز نصار.

إنه الرجل البرلماني الأول، وزعيم المعارضين، الذي ارتبط اسمه بالعديد من القضايا الوطنية الشائكة، ومنها قضية «هضبة الأهرام»، التي أقامت الدنيا و لَمْ تقعدها إلَّا بعد نجاحه في انتزاع حكم تاريخي، يقضي بمنع بيع أرض مصر في هضبة الأهرام، بعد أنْ كاد النصّابون واللصوص من الخارج والمرتشون في الداخل أن يبيعوها – أثناء فترة الانفتاح الاقتصادي – مما دفع هيئة اليونيسكو لتقديم خطاب شكر وثناء وتقدير لممتاز نصار؛ عضو مجلس الشعب، الذي كان وراء إلغاء المشروع، ومن خلفه الدكتورة نعمات أحمد فؤاد*، ونقابة المحامين. وقد أثنت اليونيسكو في خطابها على الأستاذ نصار؛ لأنه أنقذ آثار مصر من الضياع، التي تعد بمثابة ثروة قومية وعالمية يتمتع بها العالم أجمع.

هذه صورة مصغرة ودقيقة من سلسلة قضايا وطنية قومية دافع عنها نصار تحت قبة البرلمان، بصوته المميز الذي كان يجلجل في القاعة، بلْ إنَّ نوبات التصفيق الحاد لا تكاد تهدأ عقب كل استجواب يقدمه سواء لرئيس الحكومة، أو لأي وزير مهما كانت الوزارة التي يرأسها، وهذا يعكس لنا بطبيعة الحال مدى ثقل الرجل وخبرته القانونية، وحرصه الشديد على مصالح المواطن، وهو الأمر الذي دفع أهل دائرته (البدراوية) إلى أن يجبروه على أن يظل بالمجلس، بلْ كانوا يحرسون صناديق الانتخابات بأنفسهم؛ خشية أن يتم التلاعب بها، وكأنهم شعروا بأهمية الرجل ومكانته، وأن عليهم واجبًا وطنيًّا يؤدونه من خلال ترشيحهم له.

عاش ممتاز نصار حياة صاخبة مليئة بالأحداث، وقف فيها شامخًا غير مطأطئ الرأس أو منكسر لقرار رئيس أو وزير، ولعلَّ شجاعته تعود لقوة شخصيته وأصوله الاجتماعية؛ فهو سليل عائلة النواصر؛ إحدى العائلات الكبيرة التابعة لمركز البداري بأسيوط. وُلد عام ١٩١٢م، ولم يلبث والده أن دفعه لتلقي تعليمه الابتدائي في هذا المركز، الذي حصل منه على شهادتي

* نعمات أحمد فؤاد: أستاذة الدراسات العليا بجامعة حلوان، لمادة فلسفة الحضارة، وأستاذة بالمعهد الدولي للاقتصاد والبنوك الإسلامية التابع للاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية، خاضت الكثير من المعارك الفكرية والقضائية لحماية التراث والآثار، ومنها: منع دفن النفايات الذرية للنمسا في مصر، ومنع المساس بماء النيل، والدفاع عن الآثار الإسلامية، وأهم هذه القضايا هي قضية بيع أراضي هضبة الأهرام، كما تولت منصب مدير عام المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة. ولها العديد من المؤلفات، ومنها كتاب «إلى ابنتي» الذي تُرجم للإنجليزية.



(الكفاءة والبكالوريا) بين عامي ١٩٢٣م و١٩٢٧م، وكانت المرحلة التالية هي التي أفرزت لنا برلمانيًّا ساطعًا، يسترشد بنوره كل من يفكر في الدخول في معترك الحياة البرلمانية كنموذج يُحتذى به. وقد انتقل ممتاز نصار للقاهرة بغرض دراسة القانون في كلية الحقوق، جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًّا). وبعد أن حصل على ليسانس الحقوق، اشتغل بالمحاماة في مكتب مكرم عبيد سكرتير الوفد آنذاك. وقد آثر الاشتغال بالمحاماة رغم أنَّ ترتيبه عند التخرج كان يسمح له بالعمل في النيابة العامة، وبالرغم من أن أسباب ذلك غير واضحة فإننا نعتقد بأنه فضَّل العمل بحرِّية بعيدًا عن العمل الروتيني، وهو ما يتفق وشخصيته. لكننا نجده بعد ست سنوات من العمل في المحاماة يتدرج من النيابة إلى القضاء، ثم إلى التفتيش القضائي، حتى شغل وظيفة مستشار بمحكمة الاستئناف، ثم مستشارًا بمحكمة النقض. وخلال تلك الفترة كان قد تقدم للترشح لعضوية مجلس إدارة نادي القضاة، وقد انتُخب بالفعل عضوًا بمجلس إدارة النادي عام ١٩٤٧م، ثم سكرتيرًا للنادي في ذات العام، واستمر حتى عام ١٩٦٢م وفيه تم انتخابه رئيسًا لنادي القضاء. ممتاز نصار ومذبحة القضاة

ممتاز نصار ومذبحة القضاء

تعرض نصار قبل دخوله الحياة البرلمانية لعدد من المواقف، أثبت فيها وقوفه إلى جانب العدالة، كان أشهرها ما عُرف بـ «مذبحة القضاء» عام ١٩٦٩م في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، الذي أراد توجيه القضاء والقضاة في نفس اتجاه الدولة؛ حيث قام علي صبري؛ نائب رئيس الجمهورية، بكتابة عدة مقالات بجريدة الجمهورية، تدعو إلى إدخال القضاة للاتحاد الاشتراكي، ليكونوا بجوار قوى الشعب العاملة، ووصف القضاة بأنهم يعيشون في أبراج عاجية، وأن فيهم بقايا الإقطاع والرأسمالية البغيضة، ويجب استئصالهم من جذورهم، ثم قام علي صبري باستدعاء ممتاز نصار، الذي كان يشغل وقتها رئيس نادي القضاة منذ عام ١٩٦٧م، وكان وزير العدل آنئذ المستشار عصام حسونة، وطلب من ممتاز نصار الانضمام رسميًّا إلى الاتحاد الاشتراكي، وعرض عليه منصبًا مهمًّا تمثل في أمانة القضاء بالحزب، إلا أن نصار رفض بشدة، مستندًا إلى أن القضاء ملك للشعب كله، ولا يمكن أن يكون ملكًا لحزب، فرفع عصام حسونة الواقعة للرئيس عبد الناصر، واستطاع أن يحصل من الرئيس على موافقة بإبعاد القضاة عن التنظيم الطليعي والاتحاد الاشتراكي. وظل ممتاز نصار خلال هذه الفترة خير مدافع عن العدالة واستقلال القضاء، وكان مرشحًا لرئاسة محكمة النقض طبقًا لترتيب دوره، وقد سُوِّي له معاشه بعد إصلاح ما حدث للقضاة، على أنه معاش لرئيس محكمة النقض، وهو المنصب الذي كان سيشغله لولا أحداث مذبحة القضاة، وسجل كل ما دار من معارك قضائية في كتابه «معركة العدالة في مصر».

ممتاز نصار برلمانيًّا

بدأت تجربته البرلمانية عام ١٩٧٦م عندما ترشح وسط أهله (البدراوية) الذين يفتخرون به، فقد كان لدعمهم أكبر الأثر في فوزه في أول معركة انتخابية برلمانية، ثم أعاد ترشيح نفسه في المعركة الثانية عام ١٩٧٩م. وقد ظلَّ طوال مجلس ١٩٧٩م مستقلاً، وكان واحدًا من مجموعة المستقلين الذين أَثْرَوُا الحياة البرلمانية في مصر، وجعلوا من مجلس ١٩٧١ – ١٩٧٦م العصر الذهبي للمعارضة.

هذا، وتشير مضابط مجلس ١٩٧٦م، وكذلك ١٩٧٩م إلى عدد من الحقائق، نستخلص منها أنه كان زعيم المعارضة بالبرلمان، وأنه صاحب أكبر عدد من الاستجوابات القوية التي أثارت الرأي العام، ليتابع باستمرار جلسات البرلمان ليرى موقف الحكومة من هذه الاستجوابات، كما كان أبرز نوابه في مجلس ١٩٧٦م. ومن ناحية أخرى، تشير هذه المضابط إلى أنه نائب مخضرم يتمتع بحنكة القاضي والقانوني والسياسي، وقد أورد كتاب «العصر الذهبي للمعارضة» بالوثائق والشهود، أبرز النواب الذين تركوا بصمات واضحة على هذا المجلس، وكان من بينهم ممتاز نصار، إلى جانب كلٍّ من: الدكتور محمود القاضي، والأستاذ الدكتور حلمي مراد، والأستاذ كمال الدين حسين، وغيرهم، إلى أن صدر قانون الانتخاب الجديد، الذي جعل الانتخابات طبقًا لنظام القوائم الحزبية.

أحدث القانون الجديد تغييرًا نوعيًّا في مسيرة نصار البرلمانية؛ إذ كان يرشح نفسه مستقلاً، ومع هذا القانون لم يكن أمامه بد من دخول أحد الأحزاب القائمة، لكي يكمل مسيرته البرلمانية، فدخل حزب الوفد الجديد في أواخر يناير عام ١٩٨٤م. وقد أرجع سبب انضمامه لهذا الحزب، إلى أنه أقرب الأحزاب القائمة إلى فكره الليبرالي، كما أنه يعدّ امتدادًا لحزب الوفد القديم. وقد شغل نصار منصب رئيس الهيئة البرلمانية الوفدية بمجلس الشعب.

مواقف من حياة البرلماني

لْم يدع ذلك النائب قضية كبيرة كانت أم صغيرة إلَّا وأدلى بدلوه فيها، مادامت تقع ضمن مسئولية النائب وواجباته. وقد واصل بجديته وحيويته رغم تقدم سنه أداء واجباته النيابية، إلى حد مساءلته للوزراء عن تصرفاتهم، استنادًا إلى حقه الدستوري



في ذلك، وهو الحق الذي لا يقف عند مساءلة الوزير عن قراراته فقط. و لم يفكر لحظة في اسم أو موقع الوزير أو ثقله؛ في ظل مناخ سياسي معين.

ونتناول فيما يلي بعض هذه الاستجوابات لنقف على عظمة وقوة هذا البرلماني القدير: فقد قدم استجوابًا للمهندس عثمان أحمد عثمان* الذي كان يشغل منصب نائب رئيس مجلس الوزراء، وذلك بشأن كتابه الشهير «صفحات من تجربتي»، ورغم أن هذا الكتاب به العديد من الأخطاء فإن أحدًا لم يستطع أن يستجوب صاحبه باستثناء ممتاز نصار وأحمد فرغلي؛ نائبي حزب العمل اللذين أوضحا بالأدلة مخالفات الكاتب. ونظرًا لمكانة المهندس عثمان وتمتعه بمركز سياسي مرموق بحكم علاقة المصاهرة مع الرئيس الراحل السادات، ومدى انعكاس ذلك على تسابق كافة الأجهزة وكبار الشخصيات على مجاملة الرئيس؛ فقد وقفوا إلى جانب المهندس عثمان في كل ما يصدر عنه، حتى ولو كانت المعلومات التي أوردها غير دقيقة، وراح ضحية التصدي لهذه الأكاذيب النائب أحمد فرغلي، فأسقطوا عنه العضوية بعد اقتناص أول فرصة لإيقاعه في مصيدتهم، ورغم هذه الإشارات التي توحي إلى ممتاز نصار بعدم تخطيه الخطوط الحمراء، فإنها لم تجعله يفكر لحظة في أن يتراجع عن استجواب أية شخصية، حتى لو كان عثمان أحمد عثمان نفسه، وهو الذي سيتضح لاحقًا عندما يتصدى لاتفاقية «كامب ديفيد» التى عقدها السادات مع إسرائيل.

فارق كبير بين نائب كممتاز نصار يختاره الناس ليمثلهم في مجلس الشعب، وكثير من أعضاء هذا المجلس الذين يجيئون بالطرق الملتوية التي لا تخفى على أحد، وتمثل مقومات هؤلاء الأشخاص لدخول البرلمان؛ مثل المقدرة المالية، والقدرة على التملق، والرشوة.. إلخ. وهو الأمر الذي يخلق برلمانًا ضعيفًا لا يعبر عن جموع الشعب.

إنَّ السبب الذي جعلنا نتحدث عن ممتاز نصار هو خروجه عن المألوف، فقد شغلته كافة القضايا التي تمس الوطن والمواطن، سواء داخل مصر أو خارجها، وكان متابعًا جيدًا لما يدور خارج البلاد، عبر مطالعة الصحف الكبيرة مثل النيويورك تايمز *New York Times*، وهذا يوضح لنا أن اهتمامات ممتاز نصار لم تنحصر في مشكلات دائرته الانتخابية، و لم يجعل همه وشغله الشاغل الحصول على تأشيرة وزير، أو قبض مكافأة جلسات برلمانية؛ بلْ سَمَت اهتماماته وارتفعت إلى حد البحث وراء ما ينشر في الداخل والخارج، ويقع تحت مسئولية وواجبات النائب المخلص، الذي يعمل من أجل مصر، وهذا ما ينبغي أن يتوافر في جميع النواب.

ولعلَّ النموذج الذي بين أيدينا لممتاز نصار عن اهتمامه بما يدور خارج مصر، هو طلب إحاطة قدمه إلى السيد رئيس مجلس الوزراء، ونوقش في شهر يوليو عام ١٩٧٨م، وكان عبارة عن تقرير مرفوع من شركة «البوينج» الأمريكية، تضمن في نصوصه أنَّ الشركة المذكورة قدمت لجهتين في مصر مبلغ ٨,٧ ملايين دولار؛ لتسهيل توزيع إنتاجها في مصر، وكان ممتاز قد أحاط السيد وزير السياحة والطيران المدني بهذا الخبر، وطلب منه الوقوف على مدى صحة هذا البيان، وقد تقدم بالشكر إلى السيد وزير السياحة الذي استعد للإجابة على طلب الإحاطة، كما أوضح أنَّ الذي دفعه للتقدم بهذا الطلب، هو حرصه على أنْ يكون كل ما يُنشر عنا في الخارج، محل تحقيق وتمحيص منا، ولا نكون كالنعام فندفن رءوسنا في الرمال.

ناهيك عن العديد من القضايا والاقتراحات التي تخدم الوطن في شتى فروعه ونواحيه، مثل اقتراح مشروع قدمه مع بعض زملائه، يقضي بإلغاء مخصصات أسرتي الرئيسين السابقين جمال عبد الناصر وأنور السادات في كلٍّ من القاهرة والإسكندرية؛ حيث إن كلتا الأسرتين أصبحتا في حالة اقتصادية طيبة بما تزول معه أسباب ومبررات هذه المخصصات.

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نذكر جانبًا من جوانبه الاجتماعية؛ فقد كان محبًّا للحياة، يقدم خدماته للجميع، وخاصة أهل دائرته وكل من يعرفه، و لم تتمكن منه المناصب، فبقي على سجيته متواضعًا غير متكبر، وغيرها من الصفات الحميدة التي من بينها شهامة الصعايدة.

لقد كان الرجل صورة رائعة ونادرة من تاريخ مصر، سواء عندما كان في القضاء، أو عندما انتقل للبرلمان. إنه المستشار الجليل والنائب المخضرم، والقاضي النبيل، ابن أسيوط البار، الغائب الحاضر الذي مات جسده لكن ما زالت مواقفه حية تشهد على عظمته، لقد رحل عن عالمنا عام ١٩٨٧م، تاركًا نموذجًا مشرفًا لمن أراد أن يسير على نهجه.



* عثمان أحمد عثمان: هو مهندس وسياسي مصري ولد عام ١٩١٧م. ساهم في بناء السد العالي، وقام بتأسيس شركة المقاولين العرب؛ أكبر شركة مقاولات عربية في الستينيات إلى الثمانينيات، وهو صهر الرئيس أنور السادات، وكان وزير الإسكان في عهده، وقد كانت له إسهامات كبيرة في مجال التشييد والبناء. توفي عام ١٩٩٩م.


HORLICK'S
THE ORIGINAL
MALTED MILK
CAUTION
HORLICK'S
MALTED MILK
FOR INFANTS, INVALIDS
AGED AND TRAVELLERS
NO COOKING OR MILK REQUIRED
HORLICK'S MALTED MILK CO
SLOUGH, BUCKS, ENGLAND
HORLICK
THE ORIGINAL
MALTED MI
HORLICK'S
باب الصحة
ان الغذاء الذي بابن هورليك هو آمن سبيل للصحة والقوة
للرجال والنساء والاولاد .
ولبن هورليك مشهور بقيمته الغذائية وبالنسبة للطريقة
الفريدة في تحضيره فانه يمكن هضمه حتى في أضعف المعد .
وهو حسن الطعم خفيف كثير الغذاء ولذلك فلبن هورليك هو
الطعام والشراب الكاملان للجو الحار
وهو يصنع في لحظة بماء بارد أو مغلي
ويطلب من جميع الصيادلة والبقالين

الحيادُ الإيجابيّ

مصر وسياسة الحياد الإيجابي بعيدًا عن دائرة الصراع العالمي

الدكتورة صفاء خليفة

- «إن مفهوم عدم الانحياز صيغة جديدة في العلاقات الدولية تمثل قوة الضمير في عالمنا الذي نعيش فيه».

- «هو حركة واسعة نحو الاستقلال والسلام والتنمية ومشاركة جميع الدول في مصير الإنسانية. وهي لا تعني الوقوف على الحياد بين الكتلتين العظميين، ولكنها تعني أساسًا رفض أي موقف يتخذ سلفًا، وأن يكون للدول غير المنحازة حرية الحركة والتصرف وفق مصالحها. ومن هنا فإن دول عدم الانحياز قد تلتقي مع دول منحازة في المعسكر الاشتراكي إذا اتفقت مصالحها ومبادؤها. فدول عدم الانحياز لا تجد تناقضًا بينها وبين الدول الاشتراكية في معاداة الاستعمار. بل إنه في بعض الظروف قد تتوحد الأهداف بين دول تنتمي إلى معسكري القوتين العظميين ودول غير منحازة، مثلما توحدت الأهداف أخيرًا بين الجمهورية العربية المتحدة وسياسة فرنسا وسياسة الاتحاد السوفيتي وباقي معسكر الدول الاشتراكية تجاه إسرائيل».

- «إن سياسة عدم الانحياز هي في حقيقتها انحياز لمبادئ الحرية، وانحياز لآمال السلام، وانحياز لاحتمالات التقدم الباهرة، وانحياز لقدرة الفكر الإنساني على الانطلاق».

جمال عبد الناصر

مؤتمر باندونج (١٨–٢٤إبريل ١٩٥٥م) ووضع أسس الحياد الإيجابي وعدم الانحياز

انعقد مؤتمر باندونج في إندونيسيا في الفترة من ١٨ إلى ٢٤ إبريل ١٩٥٥م بحضور رؤساء ٢٩ دولة من آسيا وإفريقيا. وقد جمَّع هذه الدول هدف الخلاص من معاناة الاستعمار الغربي، وسعيها إلى ألا يعود إليها في شكل استعماري جديد. كما تريد أن تستكمل تحرير البلاد التي تخضع للاستعمار في آسيا وإفريقيا. وكانت هذه الدول تريد أن تبقى بعيدة عن دائرة الصراع الذي كان يجري بين الكتلتين الشرقية والغربية، وأن تعمل على تخفيف حدة التوتر الدولي؛ حتى لا تبتلى بآثاره، داعية إلى السلام القائم على العدل.

وقد لبت الدول المدعوة الدعوة إلى المؤتمر و لم تعتذر أية واحدة منها؛ فاشتركت فيه ٢٩ دولة تمثل أكثر من نصف سكان العالم، كانت جميعًا من الدول النامية التي تريد أن تقضي على التخلف وتزيد من دخلها القومي، وأن تتجنب في الوقت نفسه الحصول على معونات خارجية على حساب استقلالها وسيادتها.

وجاءت فكرة المؤتمر من إدراك الدول الآسيوية والإفريقية لأهمية توحيد جهودها لمواجهة المشكلات المشتركة التي تواجهها، خاصة أن هذه الدول كانت مطمعًا للدول الأوروبية الاستعمارية.



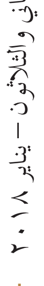
جمال عبد الناصر يشرح الأهداف التي قامت من أجلها الثورة.

وقد برزت في هذا المؤتمر الجهود التي بذلها شواين لاي؛ رئيس وفد الصين، ونهرو؛ رئيس وفد الهند، والرئيس جمال عبد الناصر؛ رئيس وفد مصر. هؤلاء الأقطاب الثلاثة كانوا دعامة المؤتمر وأهم شخصياته.

ولقد ساعد مؤتمر باندونج على تطوير توجهات السياسة الخارجية المصرية تجاه العالم العربي، بوصفها أحد الدول القائدة لحركة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز في الصراع بين القوى العظمى، ودعم حركات التحرر الوطني داخل الدول المستعمَرَة، كما جاء هذا المؤتمر ليكون مؤشرًا على بروز جمال عبد الناصر كزعيم عربي. حيث ارتفع صوت عبد الناصر، كأول صوت لزعيم عربي في المجتمع الدولي، باسم شعب فلسطين. وفي هذا المؤتمر أيضًا ندد عبد الناصر بأساليب الضغط السياسي التي تلجأ إليها بعض الدول الكبرى، مستخدمة فيها الدول الصغيرة كأداة لتحقيق أغراضها. كما طالب بتصفية الاستعمار.

وفي ١٩ إبريل ١٩٥٤م، أعلن جمال عبد الناصر أهداف الثورة على العالم، وحددها في رفع مستوى معيشة الفرد، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة، والقضاء على الإقطاع، وتقوية الجيش، ونشر العدالة الاجتماعية. واتخذ المؤتمر القرارات التالية:

- التعاون الاقتصادي والتجاري والاجتماعي بين بلدان الكتلة الآسيوية الإفريقية؛ لتحقيق رفاهية الشعوب.
- الاعتراف بحق تقرير المصير، وتأييد قضية الحرية والاستقلال بالنسبة للشعوب التابعة.
- استنكار استعمار الشعوب، ونبذ سياسة القوة كوسيلة لحل المشكلات الدولية.
- المناداة بالسلام والتعاون العالمي في نطاق الأمم المتحدة.
- الاعتراف بحق اللاجئين العرب في العودة إلى ديارهم.
- وجوب نزع السلاح كضرورة حتمية لصيانة السلام.
- وفي المؤتمر دعا الرئيس جمال عبد الناصر لسياسة الحياد الإيجابي والتعاون السلمي، وأصبحت السمة البارزة لدول المؤتمر هي أنها «دول عدم الانحياز».



جمال عبد الناصر ومؤتمر بريوني (١٨–١٩ يوليو ١٩٥٦م)

كان مؤتمر بريوني بمثابة دفع جديد لسياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، فلم يعد مقصورًا على الدول الإفرو–آسيوية التي تخلصت من التسلط الغربي، ولكنه تلاقى مع سياسة دولة أوروبية تخلصت هي الأخرى من التسلط السوفيتي. واجتمع عبد الناصر بالرئيسين تيتو ونهرو في بريوني في يوليو ١٩٥٦م، حيث أعادوا التأكيد على مبادئ باندونج.

وجاء هذا المؤتمر تثبيتًا وتأكيدًا لسياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، اجتمع فيه ثلاثة أقطاب يدينون بهذه السياسة، وهم تيتو؛ رئيس جمهورية يوغسلافيا، وجمال عبد الناصر؛ رئيس جمهورية مصر، وانضم إليهما فيما بعد جواهر لال نهرو؛ رئيس وزراء الهند.

وبعد انتهاء مباحثاتهم أصدر الزعماء الثلاثة بيانًا رسميًّا يؤكدون فيه على تبنيهم لمبدأ «الحياد الإيجابي» في السياسات الخارجية. وساعدت هذه الأيديولوجية التي انبثقت عن اجتماع بريوني على تحديد انضمام مصر لحركة عدم الانحياز التي أعقبت مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥م، والذي برز فيه الرئيس تيتو وكذلك رئيس الوزراء نهرو. وبالإضافة لتأكيد التزام الموقعين على «إعلان بريوني» على السلام المشترك، والأمن الجماعي، ونزع الأسلحة النووية، فإنهم تناولوا القضايا النوعية للشرق الأوسط، وفي القلب منها القضية الفلسطينية وسبل حلها.

وتستند أهمية هذا المؤتمر إلى عدة عوامل تمثلت في الآتي:

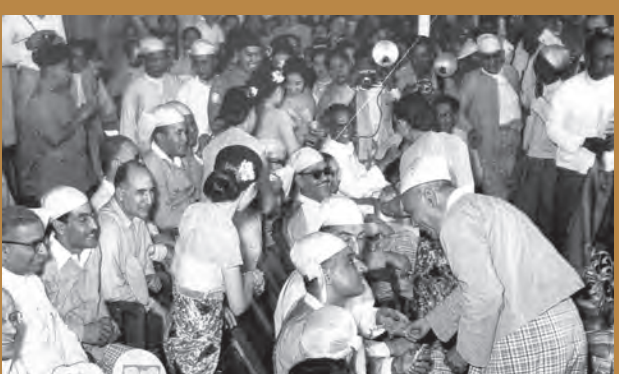
- عدم الانحياز لم يعد يشمل فقط المعيار الجغرافي المقتصر على العالم الإفرو–آسيوي، بل أصبح يشمل دولاً أوروبية مثل يوغسلافيا.
- أن سياسة عدم الانحياز لم تعد تضم الدول حديثة الاستقلال عن الاستعمار الغربي، ولكن أصبحت تضم الدول التي استطاعت الابتعاد عن دائرة السيطرة السوفيتية.
- كان اشتراك يوغسلافيا في المؤتمر تأكيدًا على أن سياسة عدم الانحياز، يمكن أن تأخذ بها أية دولة مهما كان نظامها السياسي والاقتصادي والأيديولوجي.

وقد أكدت قرارات بريوني على مبادئ مؤتمر باندونج، كما طالبت بحظر السلاح، وحظر التجارب النووية، ومنح المزيد من المعونات الاقتصادية للدول النامية، وقبول الصين في الأمم المتحدة، وتوحيد شطري ألمانيا، وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة









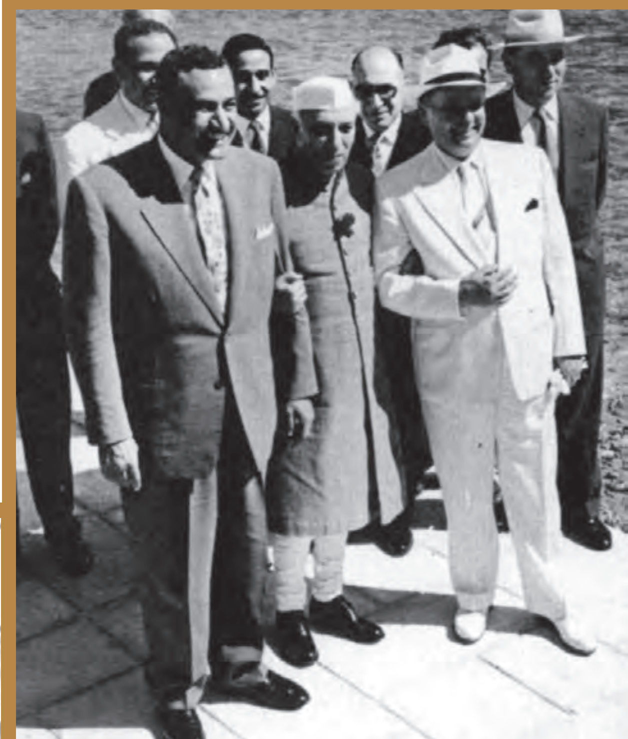
صُور جمال عبد الناصر وبعض رجال الثورة في رانجون عاصمة بورما، وهو في طريقه إلى مؤتمر باندونج. وكانت بورما تحتفل بأحد أعيادها القومية، وارتدى عبد الناصر ملابس بورما الوطنية، وخرج يشارك الشعب عيده، مع نهرو وأوفو، ثم عادوا ليتناولوا طعامًا من طعام بورما الشعبي.





الخاصة بعودة الشعب الفلسطيني، كما استنكرت قرارات المؤتمر الاستعمار الفرنسي في الجزائر. وقد اتفق ممثلو الدول الثلاث المشتركة فيه على قرارات تؤيد حرية الشعوب، وتدعم سياسة الحياد والسلام وعدم الانحياز إلى جانب أيٍّ من المعسكرين.

وقد حضر جمال عبد الناصر هذا المؤتمر بوصفه رئيسًا لجمهورية مصر، وكان حضوره رفعًا لشأن مصر في المحيط الدولي بعد انتخابه رئيسًا لجمهوريتها. كما جاء هذا المؤتمر عاملاً من عوامل السلام، ولذلك رحب به محبو السلام العالمي. وفي ذلك يقول داج همرشولد؛ السكرتير العام للأمم المتحدة: «إن زيارة جمال عبد الناصر ليوغسلافيا ستعاون جهود الأمم المتحدة في سبيل إقرار السلام الدولي». وعلق جمال عبد الناصر على هذا المؤتمر بعد أن شرح ما دار فيه بقوله: «وانتهى المؤتمر بانتصار كبير للسياسة التي تتبعها مصر، وهي سياسة عدم الانحياز».



جمال عبد الناصر وقادة مجموعة عدم الانحياز ١٩٥٦م والزعيم الهندي نهرو.



جمال عبد الناصر والزعيم اليوغسلافي تيتو في بريوني بيوغسلافيا.

مؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي (٢٦ ديسمبر ١٩٥٧م – ١ يناير ١٩٥٨م)

عقد المؤتمر الأول لتضامن الشعوب الإفرو–آسيوية في القاهرة للمرة الأولى خلال الفترة من ٢٦ ديسمبر ١٩٥٧م إلى أول يناير ١٩٥٨م، وحضره أكثر من ١٥٠ مندوبًا يمثلون ٤٨ شعبًا من شعوب القارتين. وكان ثمرة لمؤتمر باندونج السابق عليه، وقد تشكل المؤتمر حول معارضة النفوذ والهيمنة الاستعمارية في دول العالم الثالث، وساند المؤتمر عددًا من حركات التحرر الوطنية بها، كما ناقش المؤتمر القضايا التي تهم القارتين الآسيوية والإفريقية في تلك المرحلة، وكان من بينها قضية فلسطين، وقد أفرد لها المؤتمر قرارًا خاصًا أعلن فيه: «أن إسرائيل قاعدة استعمارية تهدد تقدم الشرق الأوسط وسلامته، وحق عرب فلسطين في عودتهم إلى وطنهم». وقد ذكر بعض الكتَّاب أن هذا المؤتمر كان ردًّا على العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م وتضامنًا معها.

وجاءت مشاركة مصر كجزء من إستراتيجية الزعيم جمال عبد الناصر بعد مؤتمر باندونج ليكون لها صوت أساسي في قيادة العالم الثالث، وبعد الاجتماع الأول للمؤتمر – الذي شاركت فيه ست وأربعون دولة – تأسست أمانة دائمة مقرها القاهرة برئاسة يوسف السباعي، وقامت الأمانة العامة بتنسيق أنشطة الأعضاء بالمؤتمر فيما يتعلق بالأنشطة المناهضة للاستعمار.



جمال عبد الناصر مع وفد مؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي.

جمال عبد الناصر ومؤتمر بلجراد (١-٦ سبتمبر ١٩٦١م)

- عُقِد مؤتمر تحضيري في القاهرة خلال الفترة من ٥ إلى ١٣ يونية ١٩٦١م تمهيدًا لمؤتمر بلجراد، لتحديد مفهوم عدم الانحياز وبلورة مبادئه، فلم تكن دعوة الانحياز واضحة حتى ذلك الحين.
- فلم يكن المفهوم الحقيقي لعدم الانحياز قد استقر في ضمير المجتمع الدولي إلا بعد جهود كبيرة كان فكر عبد الناصر فيها عاملاً هامًّا. فكان هناك من يفهمها على أنها مجرد اتخاذ موقف سلبي من القوتين العظميين، فهي دعوة كانت تقابل بلا شك من جانب الذين آثروا السلبية إما عجزًا وإما يأسًا. وكان هناك من يتصور أن هناك كتلة ثالثة بين الكتلتين المتصارعتين.
- ولقد وُجهت الدعوة لمؤتمر بلجراد من قِبل الجمهورية العربية المتحدة ويوغوسلافيا وإندونيسيا، على أن يعقد في بلجراد خلال الفترة من ١ إلى ٦ سبتمبر ١٩٦١م، وكان عبد الناصر أحد زعماء ثلاثة وقعوا على هذه الدعوة مع تيتو وسوكارنو. وحضرته ٢٥ دولة.
- وفي هذا المؤتمر حدد الرئيسان عبد الناصر وتيتو مبادئ عدم الانحياز بأنها تقوم على رغبتهما في انتهاج سياسة وطنية مستقلة وسلمية، ومساندة حركات تحرر الشعوب، ودعم قضايا العالم الثالث الأخرى، وشددا على نحو خاص على حاجة البلدان غير المنحازة للتخلص من أي شكل من أشكال الترتيبات العسكرية مع أيٍّ من القوتين العظميين، سواء من خلال أحلاف عسكرية أو ترتيبات دفاعية متبادلة أو منح قواعد عسكرية.

وتركزت مقررات المؤتمر التأسيسي في الآتي:

- الشعوب لها الحق في تقرير مصيرها بنفسها.
- حق كل دولة في الاستقلال وحرية التصرف بمواردها.
- إدانة أعمال القمع العسكرية التي تتعرض لها الشعوب، التي ما تزال تطالب بحريتها واستقلالها.
- استنكار الأعمال العدوانية الإسرائيلية، كما طالب المؤتمر باستكمال الاستقلال الجزائري.
- استنكر المؤتمر التمييز العنصري بكل أشكاله.
- أكد المؤتمر على ضرورة التحرك الإيجابي، والعمل على نزع السلاح ومنع التجارب النووية.







صور استقبال جمال عبد الناصر لوفود مؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي.

وكلف المؤتمر كلاً من الرئيس الإندونيسي أحمد سوكارنو ورئيس جمهورية مالي موديبو كيتا بالاتصال بالرئيس الأمريكي جون كينيدي، ومناشدته الاجتماع برئيس وزراء الاتحاد السوفيتي، إلا أن خروشوف أرسل خطابًا إلى المؤتمر يؤكد فيه على استمرار الاتحاد السوفيتي في إجراء التجارب النووية.

لقد كان توقيت انعقاد مؤتمر بلجراد مناسبًا؛ نظرًا لأن خطر الحرب كان حقيقة واقعة، كما أن الدول الكبرى لم تتمكن خلال هذه الفترة من مجابهة المحن الكبرى، ولذلك يعتبر مؤتمر بلجراد انتصارًا تاريخيًّا كبيرًا لسياسة عدم الانحياز، ودليلاً صادقًا على قوة هذه الدعوة على الساحة الدولية ومدى انتشارها وجدوى مبادئها السلمية الهادفة. يقول جمال عبد الناصر: «إن العمل من أجل السلام هو الذي سلح شعبنا بشعار عدم الانحياز، وإن الذين يحاولون اليوم استغلال شعار عدم الانحياز ليستروا به أمام شعوبهم انحيازهم إلى معسكرات الحرب والاستعمار، إنما يقدمون إطراءً غير مباشر لشعبنا الذي كان رائدًا في رفع هذا الشعار عن إيمان، وفي النضال من أجله – عن حاجة حقيقية إليه نابعة من صميم كفاحه لإحراز التقدم، وإن التعاون الدولي من أجل الرخاء المشترك لشعوب العالم هو امتداد طبيعي للحرب ضد الاستعمار.. ضد الاستغلال».



صور أثناء مؤتمر بلجراد سبتمبر ١٩٦١م.

جمال عبد الناصر ومؤتمر القمة الثاني لحركة عدم الانحياز بالقاهرة (٥-١٠ أكتوبر ١٩٦٤م)

توجت جهود عبد الناصر في عالم عدم الانحياز، حينما انعقد مؤتمر القمة الثاني لعدم الانحياز في القاهرة في الفترة من ٥ إلى ١٠ أكتوبر ١٩٦٤م. وكانت مصر هي الدولة المضيفة، وقد اشتركت في هذا المؤتمر ٤٧ دولة غير الدول التي شهدته كمراقبة، في حين لم يشترك في مؤتمر بلجراد سوى ٣٢ دولة.

وقد انعقد هذا المؤتمر في القاهرة بعد أن كان العالم قد فقد أحد الأقطاب الثلاثة الذين تزعموا سياسة عدم الانحياز، وهو الزعيم الهندي نهرو، وهذا المؤتمر هو متابعة للنضال الممتد، والذي يزداد كل يوم عمقًا وعرضًا؛ بحيث يستحق أن يكون مؤتمر تدعيم السلام عن طريق التعاون الدولي. فإن تخفيف حدة الحرب الباردة التي كانت تخيم على مؤتمر بلجراد، لا يعني أن دور عدم الانحياز قد انتهى؛ فمفهومه الحقيقي هو العمل من أجل سلام دائم يقوم على العدل.

أدان عبد الناصر في خطابه، أمام مؤتمر القاهرة، الاستعمار بجميع أشكاله وأنواعه القديم منها والحديث، وأدان سياسات القمع المسلح كما تجري في المستعمرات البرتغالية وفي الجنوب العربي المحتل وفي عدن وعمان، وأدان سياسات الأحلاف والقواعد العسكرية، وأدان سياسات الاستيلاء على أراضي الشعوب وطردها بالقوة بتأييد من الاستعمار، كما يجري في فلسطين، وأدان سياسات التحيز والتفرقة العنصرية كما يحدث في جنوب إفريقيا. ونبه عبد الناصر إلى أن الفوارق المؤلمة في مستويات معيشة الشعوب لن يكون من شأنها إلا وضع العالم على فوهة بركان لا يهدأ ولا يستقر ولا ينام، قائلاً: «إن هناك فوارق مروعة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة. ويضاعف من الإحساس بهذه الفوارق أن شعوب الدول المتخلفة ترى، وهي على حق فيما تراه، أن رخاء غيرها قد أخذ منها بوسائل النهب الاستعماري المروعة....».

وطالب عبد الناصر المجتمع الدولي بالعدل، فقال: «لا نريد أن ينتهي تقسيم العالم إلى كتلة غربية وكتلة شرقية لتقوم تقسيمات أخرى أكبر وأخطر، كتلة من الفقراء وكتلة من الأغنياء، كتلة من المتقدمين وكتلة من المتخلفين. كتلة في الشمال من الكرة الأرضية من حقها الرخاء، وكتلة في الجنوب ليس لها غير الحرمان. كتلة من البيض وكتلة من الملونين».





صور أثناء مؤتمر عدم الانحياز بالقاهرة أكتوبر ١٩٦٤م.

تضمن الإعلان النهائي للمؤتمر الذي أطلق عليه برنامج السلام والتعاون الدولي، واتفق أعضاء حركة عدم الانحياز على الآتي:

- العمل المشترك لتحرير الدول غير المستقلة والقضاء على الاستعمار، واستنكار عدم تنفيذ إعلان الأمم المتحدة الخاص بمنح البلدان أو الشعوب المستعمرة استقلالها.
- تأييد كفاح شعب فلسطين للتحرر من الاستعمار والعنصرية، وشجب سياسة الإمبريالية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط، ويقرر وفقًا لميثاق الأمم المتحدة.
- تأييد استعادة حقوق الشعب العربي في فلسطين كاملة غير منقوصة، وحقه الطبيعي في تقرير مصيره، ونضاله من أجل التحرر من الاستعمار.
- اعتبار التمييز العنصري انتهاكًا للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ومبدأ المساواة بين الشعوب، وندد في هذا الإطار بحكومة جنوب إفريقيا العنصرية.
- إن حق الاستقلال التام هو حق طبيعي يجب الاعتراف به فورًا ودون شروط وتطبيق مبدأ المساواة في السيادة بين الدول، والامتناع عن أي تهديد باستعمال القوة، ويشير إلى وجوب حل جميع المنازعات الدولية بالوسائل السلمية، وبالتزام الدول للتعاون من أجل دفع عجلة التنمية الاقتصادية في الدول النامية والعالم أجمع.
- إن مشكلة الأمم المقسمة سبب أساسي للتوتر الدولي، ولذلك يعلن المؤتمر تعاطفه مع هذه الشعوب، إشارة إلى مشكلة تقسيم ألمانيا، كما يعلن المؤتمر قلقه بشأن المسألة القبرصية، كما طالب المؤتمر رفع الحصار الاقتصادي الأمريكي المفروض على كوبا.
- طالب المؤتمر بحل المنازعات الدولية بالطرق السلمية وفقًا لميثاق الأمم المتحدة دون التهديد باستعمال القوة أو باستخدامها. وقد أشار المؤتمر إلى احترام السلام والاستقرار في شبه جزيرة الهند الصينية.
- حتمية نزع السلاح، واستخدام الطاقة الذرية للأغراض السلمية، وتحريم جميع التجارب النووية، ومنع انتشار الأسلحة النووية وإلغائها، وإنشاء مناطق خالية من الأسلحة النووية.
- طلب المؤتمر من الدول الكبرى أن تتخذ خطوات عاجلة نحو تحقيق نزع السلاح تحت رقابة دولية فعالة ودقيقة.
- يناشد المؤتمر جميع الدول أن تنضم إلى معاهدة موسكو للحظر الجزئي لتجارب الأسلحة النووية.
- أكد المؤتمر على أن وجود الأحلاف العسكرية قد زادت من حدة التوتر الدولي وتصاعد الحرب الباردة، كما اعتبر أن استمرار وجود القواعد العسكرية الأجنبية في أراضي بعض الدول يمثل انتهاكًا لسيادة الدول وتهديدًا للحرية والسلام العالمي. وأوصى المؤتمر بإزالة القواعد الأجنبية من قبرص، وندد بعزم الدول الاستعمارية على إنشاء قواعد في المحيط الهندي؛ بهدف الضغط على الدول الناشئة في إفريقيا وآسيا.
- رأى المؤتمر أن تقوم الأمم المتحدة بوظائفها بشكل فعال، وأن تراعي في أعمالها المبادئ الأساسية للتعايش السلمي، وطالب بانضمام الصين الشعبية إليها.
- أهمية وضع برنامج للعمل من شأنه أن يعالج مشكلات الدول النامية، ويتحقق في إطاره تعاون أفضل بين الدول الصناعية والدول النامية، ويطالب بالتعجيل بإنشاء وكالة متخصصة للتنمية الصناعية.
- طالب المؤتمر بتعزيز مجالات التعاون الثقافي والعلمي والتربوي بين دوله والدول المتقدمة، ويدعو الدول الصناعية الكبرى لتزويد الدول النامية بمزايا التقدم العلمي والتكنولوجي لتحقيق التنمية الاقتصادية.



كلمة الرئيس جمال عبد الناصر في مؤتمر الأقطاب بالهند (٢١ أكتوبر ١٩٦٦م)

أيها الإخوة والأصدقاء:

ربما كان الوقت لا يزال مبكرًا للحديث عن هذا اللقاء الذي يجمع في مدينة نيودلهي المجيدة ما بين يوغوسلافيا والهند والجمهورية العربية المتحدة. ولست أريد أن أسبق مناقشاتنا أو نتائجها، وإن كنت أرجو أن تسمحوا لي بإبداء بعض الملاحظات السريعة:

– أولاً: إنني أستأذنكم في توجيه شكر خاص وحار للشعب الهندي العظيم الذي يستضيف هذا الاجتماع في عاصمته، مؤكدًا بذلك دور الهند الطليعي في حركة الثورة الوطنية من أجل الاستقلال، وفي النضال من أجل بلوغ التقدم الاقتصادي والاجتماعي الذي هو غاية الاستقلال السياسي ومضمونه.

– ثانيًا: إننا نلتقي هنا – الهند ويوغوسلافيا والجمهورية العربية المتحدة – بالدرجة الأولى كأصدقاء قدامى، جمعنا تقليد تاريخي من العمل المشترك، صنعته وعززته وحدة في المبادئ والمثل العليا، وعمقته لقاءات متعددة في بريوني والقاهرة من قبل، وفي نيودلهي اليوم؛ استطرادًا واستمرارًا.

وكأصدقاء فنحن لا نجتمع هنا لكي نخرج حلولاً للمشكلات، أو دواء لكل الأمراض؛ وإنما نلتقي قبل كل شيء لكي نتبادل الأفكار والخبرات النضالية، ولنضع ما نصل إليه لخدمة المبادئ التي آمنت بها دائمًا وأخلصت لها دائمًا شعوبنا.

ونتمنى لو استطاع جهدنا – كما حدث في الماضي – أن يكون إسهامًا إيجابيًا في قضايا وآمال الشعوب التي تجمعها مع شعوبنا آمال الحرية والتقدم والسلام.

– ثالثًا: إن السياسة التي آمنت بها شعوبنا دائمًا وأخلصت لها دائمًا – وأعني بها سياسة عدم الانحياز – سليمة في جوهرها، برغم كل التطورات المتلاحقة، كما أن المبادئ الأصيلة لهذه السياسة – وأعني بها مبادئ التعايش السلمي كما حددتها مؤتمرات باندونج وبلجراد والقاهرة – ما زالت صحيحة، بل إن التجارب تؤكد لنا ذلك كل يوم وتقوي من إيماننا بها. ولقد تتطلب منا التغييرات التي طرأت على العالم في السنوات الأخيرة اجتهادات جديدة، لكن هذه الاجتهادات لا تمس السياسة نفسها أو المبادئ الأصلية فيها. إن العالم يختلف اليوم عن عالم الصراع بين الكتلتين الغربية والشرقية الذي واجهناه سنة ١٩٥٥م أو بعدها، لكنه مع ذلك لا يزال عالمًا يحكمه الصراع وإن تعددت مراكزه.

– رابعًا: إن المتناقضات التي كانت بين أسباب الصراع في الصورة السابقة ما زالت باقية، وما زال الاستعمار في عديد من قارات العالم يحاول قهر الشعوب، وما زالت التفرقة العنصرية تمارس بنفس الرعونة اللا أخلاقية، وما زالت تمارس بأبشع ما تكون للإرهاب والإخضاع.



ما زالت قضية السلام والحرب برغم ميزان الرعب النووي معرضة للمطامع والمغامرات، وليس من شك أن نضال الشعوب ضد ذلك كله حقق انتصارات هائلة، لكننا لا نستطيع أن نخدع أنفسنا ونتصور أن الخطر قد زال.

– خامسًا: وكذلك فلقد ظهرت متناقضات جديدة أخطرها في رأينا هو التناقض بين الفقر والغنى، وبين التقدم والتخلف. وبرغم أن شعوبنا الآن تبذل من الجهد أكثر مما بذلت في أي وقت من أوقات نضالها الحديث؛ فإن أدواتها المادية والعلمية والتكنولوجية لا تساعد طموحها بالقدر الكافي. كما أنها تتعرض أثناء جهدها الشاق والبطولي لمعوقات وعراقيل توجه إليها من جانب القوى الرائدة في السيطرة، بل أقول إنها تتعرض لضغوط عنيفة تكاد تصل إلى حد الحرب الاقتصادية والنفسية.



– سادسًا: ومن الضروري حتى بالنسبة لكرامة عملنا، فضلاً عن مطالبه أن نرفض موقف التردد الذي يراد إيقاعنا فيه، إن موقف التردد هو مقدمة لموقف التراجع؛ ولذلك فإنه من الضروري أن نقف معًا في حزم، وأن نثبت للذين لم يروا الحقيقة أن رخاء العالم لا يتجزأ، وأن سلام العالم لا يتجزأ، وأن التقدم للإنسانية لا يتجزأ.

– سابعًا: إن وقفتنا في حزم لا يمكن أن تحقق فعلها وأثرها إلا بتعاون وثيق بيننا في كل المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، وإن ذلك لا يدفع خطانا إلى الأمام فحسب، وإنما هو أيضًا يمكن لنا ولغيرنا أمانًا بغير حدود ضد غارات الاستعمار الجديد والرجعية المتحالفة معه.

وفي هذا الصدد فإنه من الضروري أن يتصل كفاحنا لتصفية الجيوب الاستعمارية، ونحن نعرف بعضها في منطقتنا من العالم.. الشرق الأوسط وإفريقيا، فإن هذه الجيوب يمكن أن تكون مراكز انطلاق للانقضاض علينا بواسطة تحالف الاستعمار والرجعية؛ بقصد إعادة السيطرة على شعوبنا المناضلة ومنع تقدمها الاقتصادي والاجتماعي.

إن سياسة عدم الانحياز هي في حقيقتها انحياز لمبادئ الحرية، وانحياز لآمال السلام، وانحياز لاحتمالات التقدم الباهرة، وانحياز لقدرة الفكر الإنساني على الانطلاق.

كما أن الشعوب المؤمنة بهذه السياسة لا تقصد بها أن تنعزل عن عالمها، بل هي على العكس تقصد أن تتفاعل معه، وتعاني قضاياه وهي تمارس كفاحها اليومي من مفهوم المصلحة الوطنية، يعتبر السلام العالمي القائم على العدل جزءًا لا يتجزأ من وجدانه ومن ضميره.

شكرًا لكم أيها الأصدقاء، وليوفقنا الله فيما نقصد إليه.



عبد الناصر، وتيتو، وأنديرا غاندي؛ رئيسة وزراء الهند، في أول لقاء في دلهي في إطار مؤتمر الأقطاب.



لقطة معبرة ومؤثرة أثناء لقاء جمال عبد الناصر مع رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي.





يوسُف بِك وهْبِي

ولد يوسف عبد الله وهبي في ١٤ يوليو ١٨٩٨م بالفيوم على شاطئ ترعة بحر يوسف، وسمي بهذا الاسم تيمنًا باسمها. وبدأ تعليمه في كتاب العسيلي، ثم تلقى تعليمه بالمدرسة السعدية، كان أبوه الباشا يريده أن يصبح مهندسًا مثله، ولكن عشقه للتمثيل دفعة بعيدًا تمامًا عن هذا الطريق، ووسط دهشة عائلته كلها التحق بالسيرك للعمل كممثل، كما عمل مصارعًا في سيرك الحاج سليمان؛ حيث تدرب على يد بطل الشرق في المصارعة آنذاك المصارع عبد الحليم المصري. وهكذا انتقل من أعلى طبقة في المجتمع إلى أدنى طبقة وهي طبقة (المشخصاتية) التي لم يكن معترفًا بشهادتها أمام محاكم الدولفي ذلك الوقت. وكرد فعل طبيعي للعار الذي لحق بسمعة عائلته من جراء فعلته قام والده بطرده من بيت العائلة، وألحقه بالمدرسة الزراعية بمشتهر في محاولة منه لإصلاحه وتهذيبه.

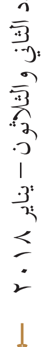
وقد شغف يوسف وهبي بالتمثيل لأول مرة في حياته عندما شاهد فرقة الفنان اللبناني «سليم القرداحي» في سوهاج، فبدأ بإلقاء المونولوجات وأداء التمثيليات بالنادي الأهلي والمدرسة.

لم يستجب يوسف وهبي لمحاولات أهله لإبعاده عن مجال التمثيل والفن؛ فهرب إلى إيطاليا لتعلم المسرح عقب الحرب العالمية الأولى بإغراء من صديقه القديم المخرج محمد كريم، وتتلمذ للممثل الإيطالي كيانتوني. ودرس بالعديد من المعاهد العالمية؛ مثل معهد «دانتي اليجيري» بميلانو ومعهد السينما «أرمانديس» بإيطاليا. ولكي يهرب من ملاحقة عائلته قام بتغيير اسمه إلى رمسيس، ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن وصله خبر وفاة والده الباشا عام ١٩٢١م الذي توفي وترك له ولإخوته ثروة كبيرة جدًّا كان نصيبه منها ١٠,٠٠٠ جنيه من الذهب الخالص.

بعد أن تسلم يوسف وهبي إرثه، قام بإنشاء فرقة مسرحية خاصة، وأطلق عليها «فرقة رمسيس» ١٩٣٠م، وقرر أن يقدم بها شيئًا مختلفًا عن ما يقدمه مشاهير المسرح في ذلك الوقت – علي الكسار ونجيب الريحاني – بعد أن قام بدراسة أعمالهما دراسة متأنية، وأُطلق عليه في تلك الفترة من بداياته لقب «رسول العناية الإلهية» الذي سوف ينهض بفن التمثيل في مصر. وقد قدمت الفرقة ٢٨٤ عملاً مسرحيًّا مؤلفًا وممصرًا، قام وهبي بإخراج معظمها. وفي عام ١٩٣٢م أنتج ومثَّل أول فيلم مصري ناطق «أولاد الذوات».

يعتبر صاحب أشهر فرقة في تاريخ المسرح المصري والتي أنجبت العديد من الممثلين في العصر الذهبي للسينما والمسرح، عرف بدقة اختياره لأدواره، وبأدائه المتميز باللغة العربية الفصحى. وقد تولى يوسف وهبي منصب المدير العام للفرقة القومية – المسرح القومي – والمدير الفني لشركتي الإنتاج «نحاس فيلم» و«أفلام رمسيس».

بعد بداية قوية في المسرح دخل يوسف وهبي إلى السينما متأخرًا قليلاً؛ وذلك بسبب إعطائه المسرح الجزء الأكبر من



اهتمامه، وبسبب آخر أهم وهو العداء الذي نشأ بينه وبين الصحافة والرأي العـام عندما قرر تجسيد شخصية النبـي ﷺ على شاشة السينما، وهو ما أثار حفيظة الجمهور والنقاد بل والعاملين بالمجال السينمائي نفسه.

بعد أن هدأت هذه الأزمة بدأ يوسف وهبي في الإعداد مع المخرج محمد كريم لفيلم روائي طويل وهو فيلم «زينب»، على أن يقوم هو بإنتاجه ويقوم محمد كريم بالإخراج. ثم اتفق مع محمد كريم بعد ذلك على صناعة أول فيلم مصري ناطق وهو فيلم «أولاد الذوات» الذي حقق نجاحًا ساحقًا، فقام يوسف وهبي بكتابة ثاني أفلامه وهو «الدفاع» عام ١٩٣٥م، واشترك في إخراجه مع نيازي مصطفى، ثم كان الفيلم الثالث «المجد الخالد» عام ١٩٣٧م الذي قام فيه بالكتابة والتمثيل والإنتاج والإخراج.

عمل بعد ذلك يوسف وهبي كمؤلف لثلاثة أفلام متتالية: «ليلة ممطرة»، و«ليلى بنت الريف»، و«ليلى بنت مدارس»، كلها من إخراج توجو مزراحي. بعد نجاح هذه الأفلام قام يوسف وهبي بإخراج فيلم «غرام وانتقام» الذي قام فيه – بغرابة شديدة – بدور العاشق صغير السن، وقد بلغ من العمر وقتها الرابعة والستين. وقد حصل بسبب إحدى أغاني هذا الفيلم على لقب بك؛ لأنها كانت تمجد في ذات العائلة المالكة، عقب حضور الملك فاروق أول عرض لفيلم «غرام وانتقام» في سينما ريفولي بالقاهرة.

في عام ١٩٥٠م انتخب نقيبًا للممثلين، وفي عام ١٩٥٣م عمل مستشارًا فنيًّا للمسرح بوزارة الإرشاد. وتخليدًا لذكراه تأسست جمعية تحمل اسمه في مسقط رأسه بالفيوم؛ وهي «جمعية أصدقاء يوسف وهبي» وأقيم له تمثال أمام هذه الجمعية.

وقد حصل يوسف وهبي أيضًا على وسام تقدير من مجلس قيادة الثورة، وجائزة الدولة التقديرية في الفنون عام ١٩٥٧م، ودرجة الدكتوراه الفخرية من أكاديمية الفنون عام ١٩٧٥م عن مجمل عطائه للفن المصري، كما حصل على العديد من الأوسمة من إيطاليا والفاتيكان.

في عام ١٩٧٩م قام يوسف وهبي بتمثيل دور اليهودي العجوز الذي يعشق مصر بعد أن عاش كل حياته بها، وذلك في فيلم «إسكندرية ليه»، وهي المرة الأولى التي يقوم فيها ممثل بأداء شخصية اليهودي بعد ثورة ١٩٥٢م. وقد أظهر في هذه الشخصية إحساسًا مرهفًا مدعمًا بخبرة سنين طويلة من الإبداع والفن.

اتجه يوسف وهبي في نهاية حياته لأداء الأدوار الكوميدية في عدد من الأفلام، ونجح فيها بشكل لافت للنظر. وبرغم الأفلام العديدة التي كتبها وأخرجها ومثَّل فيها يوسف وهبي فإنها لم تكن أفضل أعماله، بل على العكس فقد كانت أفضل أفلامه هي التي شارك فيها بالتمثيل فقط دون أي نشاط آخر؛ مثل «إشاعة حب»، و«مذكرات زوج»، وكانت على العكس من أدواره في المسرح، كلها شخصيات كوميدية أداها بمنتهى البراعة فحازت على استحسان الجميع. وقد كانت هذه الأدوار الكوميدية تدعيمًا لرأي بعض النقاد المسرحيين الذين يرون أن يوسف وهبي تفوق في الكوميديا أكثر من التراجيديا.









أهم أعماله

قدم للفن ٣٢٠ مسرحية، و٥٨ فيلمًا، و١١١ عملاً إذاعيًا، و١٥ مسلسلاً تليفزيونيًا.

مسرحياته

- «الموت المدني».
- «راسبوتين».
- «ابن الفلاح».
- «بنت مدارس».
- «أولاد الشوارع».
- «ناكر ونكير».
- «بيومي أفندي».

أفلامه

- «أولاد الذوات»، عام ١٩٣٢م.
- «الدفاع»، عام ١٩٣٥م.
- «المجد الخالد»، عام ١٩٣٧م.
- «ساعة تنفيذ»، عام ١٩٣٨م.
- «ليلة ممطرة»، عام ١٩٣٩م.
- «عريس من إسطنبول»، عام١٩٤١م.
- «ليلى بنت مدارس».
- «ليلى بنت الريف».
- «عاصفة على الريف»، عام ١٩٤٢م.
- «أولاد الفقراء».
- «بنت ذوات».
- «جوهرة»، عام ١٩٤٣م.
- «طريق مستقيم».
- «برلنتي»، عام ١٩٤٤م.
- «سيف الجلاد».
- «ابن الحداد».
- «غرام وانتقام».
- «سفير جهنم»، عام ١٩٤٥م.
- «الفنان العظيم».
- «بنات الريف».
- «يد الله»، عام ١٩٤٦م.
- «ضحايا المدينة».
- «شمعه تحترق».



- «ملاك الرحمة».
- «ضربة قدر»، عام ١٩٤٧م.
- «شادية الوادي».
- «رجل لا ينام»، عام ١٩٤٨م.
- «كرسي الاعتراف»، عام ١٩٤٩م.
- «بيومي أفندي».
- «غزل البنات».
- «أمينة».
- «الأفوكاتو مديحة»، عام ١٩٥٠م.
- «أولاد الشوارع»، عام١٩٥١م.
- «حبيب الروح».
- «بنت الهوى»، عام ١٩٥٣م.
- «بيت الطاعة».
- «أسعد الأيام»، عام ١٩٥٤م.
- «حياة أو موت».
- «عهد الهوى»، عام ١٩٥٥م.
- «بحر الغرام».
- «الملاك الصغير»، عام ١٩٥٨م.
- «حبيبي الأسمر».
- «مفتش المباحث»، عام ١٩٥٩م.
- «الناس اللي تحت»، عام ١٩٦٠م.
- «إشاعة حب».
- «مال ونساء».
- «مولد الرسول».
- «الخيانة العظمى»، عام ١٩٦٢م.
- «الاستعباد».
- «أيام زمان»، عام ١٩٦٣م.
- «اعترافات زوج»، عام ١٩٦٤م.
- «القاهرة ٣٠»، عام ١٩٦٦م.
- «نورا»، عام ١٩٦٧م.
- «كيف سرقنا القنبلة الذرية؟».





- «شنبو في المصيدة»، عام ١٩٦٨م.
- «الحلوة عزيزة»، عام ١٩٦٩م.
- «ميرامار».
- «دلع البنات».
- «الحب الكبير»، عام ١٩٧٠م.
- «الاختيار»، عام ١٩٧١م.
- «عشق الحياة».
- «موعد مع الحبيب».
- «عالم الشهرة».
- «أزمة سكن»، عام ١٩٧٢م.
- «البحث عن فضيحة»، عام ١٩٧٣م.
- «زمان يا حب».
- «البنات لازم تتجوز».
- «حكايتي مع الزمان».
- «الرداء الأبيض»، عام ١٩٧٥م.
- «البؤساء»، عام ١٩٧٨م.
- «إسكندرية ليه»، عام ١٩٧٩م.
- «دماء على الثوب الوردي»، عام ١٩٨٢م.

وقد توفي يوسف بك وهبي في ١٧ أكتوبر عام ١٩٨٢م، عن عمر يناهز أربعة وثمانين عامًا، قدم خلالها روائع فنية خالدة في ذاكرة الفن.















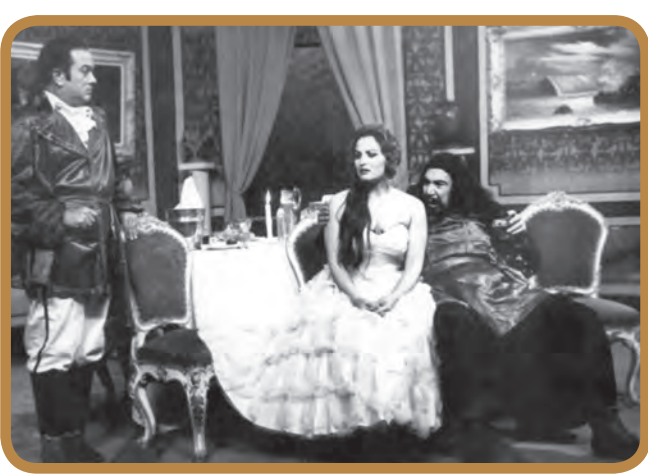
















إنذار لامبسون للملك فاروق

٤ فبراير ١٩٤٢م

جابرييل واربورج
ترجمة الدكتور علي عفيفي علي غازي



تمّ توجيه هذا الإنذار بواسطة السير مايلز لامبسون (لاحقًا اللورد كيليرن) المندوب السامي البريطاني في القاهرة إلى الملك فاروق الأول في ٤ فبراير ١٩٤٢م. وقد اعتبر أحد ملامح تاريخ مصر السياسي؛ إذ أذل القصر، وأعاد الوفد إلى السلطة بعد أكثر من أربع سنوات من الإبعاد السياسي، فعودة الوفد لم تكن في ظروف سعيدة؛ لأنه كان بتدخل وبتهديد من الجيش البريطاني؛ وليس بشعبيته. ونلحظ ونلمس في السنتين اللاحقتين عندما أصبح النحاس باشا رئيسًا للوزراء، وبتشكيله حكومة وفدية خالصة، الانحدار في شعبية الوفد، الذي تزامن مع صعود الحركات الأخرى التي تزعمها الإخوان المسلمون.

كشفت السجلات البريطانية الرسمية، التي تعاملت مع تلك الفترة، والتي باتت متاحة للعامة، كثيرًا من التفاصيل، وبالرغم من أنها قليلة، فإنها دقيقة، وأكثر ضمانًا. ولكن من الضروري أن نسترجع بعض الملاحظات التي كتبها بعض المؤرخين والسياسيين في الماضي عن هذا الموضوع. فقد اعتبر جون مارلو John Marlowe هذا الإنذار مطلبًا ضروريًّا، وقد عبر عن هذا في سطور قليلة. إذ يقول عن ظروف تولي النحاس السلطة أنها «قدمت لمنافسيه سلاحًا قاتلاً يُستخدم ضده مع اضمحلال الحماية البريطانية».

يذكر كذلك زكي محمد قرشي Z. M. Quraishi في تاريخه عن الوفد، تفاصيل كثيرة لكنها غير دقيقة؛ فقد عبر عن وصف الأحداث التي أدت إلى الإنذار والمواجهة بين لامبسون وفاروق، فيُشير إلى أنها المرة الأولى التي تتدخل فيها الحكومة البريطانية في حركة شعبية في مصر، وتتوسط لعودة حزب الوفد للسلطة. ورحب العامة بهذه الخطوة بمظاهرات من الحماس والسعادة. ويستطرد على الرغم مما يدّعيه أنها مظاهرات الحماس، فيذكر أن ظروف تولي الوفـد للسلطـة، مكنت الملك من الحشـد والتدعيم للعناصر ضد الوفد، واتهام الوفد بالخيانة، ليحمي عرشه ومكانته.

يعرف الملاحظون للسياسات المصرية جيدًا أن الاتحاد ضد الوفد لم يكن إنجازًا عظيمًا، و لم يتطلب الإنذار الإنجليزي. وأكثر من ذلك فإن الوفد قد أصبح في عداد الخائنين في بعض الدوائر في أعقاب توقيع المعاهدة المصرية البريطانية عام ١٩٣٦م. ولاستعادة الملك فاروق لمكانته يقول ماكبريد McBride أن السيرة الذاتية لفاروق أخذت اتجاهًا أكثر حرصًا وأكثر واقعية عندما وصف الأسباب التي أدت إلى إذلال فاروق، فهو يُصرح بأن أفعال لامبسون أدت إلى هبوط شعبية حزب الوفد الذي أتى به الإنجليز.

يقول توم ليتل Tom Little في كتاب مصر الحديثة أن اللورد كيليرن (السير لامبسون) قد أضعف مثلث القوة في مصر، والذي من خلاله تسير الحياة السياسية، والذي نتج عنه زيادة الضغينة بين الإنجليز والملك من ناحية، كما أن الإهانة العظمى في ٤ فبراير ١٩٤٢م قد وسعت المسافة بين الملك والشعب من ناحية أخرى. ويستشعر البعض أن أحداث فبراير قد أضعفت شعبية حزب الوفد، الذي فقد كثيرًا من التأييد الجماهيري لصالح الإخوان المسلمين.

من الضروري كذلك أن نُشير إلى بعض كتابات السياسيين المصريين، وبعض أفراد الجيش المصري عن أحداث فبراير ١٩٤٢م . مثلًا يصف محمد حسين هيكل، بعد مرور ١٠ سنوات على الحدث، في مذكراته، وخصص فصلًا كاملًا لهذا اليوم الذي لا يُنسى، فيقول:«٤ فبراير ١٩٤٢م، من الأيام الأكثر سوادًا في التاريخ المصري والتاريخ الإنجليزي في مصر،



فهو اليوم الذي سُجل في التاريخ المصري بجانب دنشواي، أو معركة التل الكبير، أو ضرب الإسكندرية بالقنابل، أو أيٍّ من تلك الأيام في التاريخ المصري، ولا يُمكن أن تُمحى عبر الأجيال». ويُصرح هيكل، أنه لم يستطع، بالرغم مما بذله من جهود، خلال العشر سنوات التي مرت منذ تلك الأحداث، تغطية التفاصيل الكاملة التي أدت إلى أحداث ٤ فبراير.

يذكر ثلاثة من قادة الضباط الأحرار محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات، أحداث فبراير ١٩٤٢م، في كتاباتهم بعد أحداث ثورة يوليو ١٩٥٢م. إذ يُصرح محمد نجيب أن إذعان أو تسليم فاروق للإنذار كان نقطة سقوطه، وكان من العوامل الرئيسة التي أدت إلى أن الضباط الأحرار قاموا بالثورة في ١٩٥٢م. أما جمال عبد الناصر فقد وصف في كتابه الإنذار بأنه كارثة، دفعت الضباط الأحرار إلى عدم الاكتفاء بالحديث عن الفساد، ولكن شجعهم على التضحية بحياتهم في سبيل حفظ كرامة الوطن. ويُعبر أنور السادات عن أحداث ١٩٤٢م، بأنها نقطة فاصلة في تاريخ مصر المعاصر، وقد صرح بأنه نتيجة الانقلاب الإنجليزي في ٤ فبراير ١٩٤٢م، قد فرض الوفد على مصر عامين من الديكتاتورية. فعامان من السمسرة والاختلاس استحوذا على الحزب في مصر.

٤ فبراير ١٩٤٢م نقطة تحول في قوة مصر السياسية

هذه الأمثلة القليلة توضح أن أحداث ٤ فبراير ١٩٤٢م، وما بعدها في نظر المؤرخين والسياسيين كانت نقطة تحول في قوة مصر السياسية. فنجد أن تناول الفترة التي سبقت أحداث فبراير ١٩٤٢م يُعطي تفهمًا أفضل لصدمة الإنذار. ويُشير إلى أنه مع اشتعال أور الحرب العالمية الثانية، فإن الحكومة المصرية، التي شكلها حزب الأحرار الدستوريين، بقيادة علي ماهر، التزمت بتعهداتها بالمعاهدة المصرية الإنجليزية لعام ١٩٣٦م، بوضع قانون جديد للخدمة العسكرية، وبقطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا. وبموجب الخطاب الذي أصدره علي ماهر وضعت مصر نفسها في خدمة بريطانيا أثناء الحرب، وكان لعلي ماهر؛ رئيس الحكومة المصرية حتى أغسطس ١٩٣٩م، تأثيره القوي في الملك فاروق، وهو ما أوجد تناغمًا بين الحكومة والقصر. إلا أن بريطانيا العظمى، وهي الضلع الثالث والمتسلط في مثلث السياسة في مصر كانت غير سعيدة وغير راضية عن العلاقة الحسنة بين علي ماهر والملك فاروق.

وبالرغم من إذعان علي ماهر في خطابه، وإقراره بمعاهدة ١٩٣٦م، فإنه رفض تقديم أي تعهدات للإنجليز، كما أنه لم يكن ميالًا للحرب ضد ألمانيا. ومع دخول إيطاليا الحرب؛ حيث يقطن في مصر قرابة خمسين إيطاليًا، بات الجيش الإيطالي على مقربة من الحدود المصرية سواء في ليبيا أو إثيوبيا. وكان علي ماهر مشمئزًا من مساندة بلاده لإنجلترا التي بدت كالحصان الخاسر. وهو ما أدى إلى إجبار الملك على التخلي عن علي ماهر في ٢٢ يونية ١٩٤٠م، وترتب على ذلك تشكيل حكومتين، كانتا على علاقات ودية بالإنجليز؛ الأولى برئاسة حسن صبري، والثانية برئاسة حسين سري. وبالرغم من مساندة ودعم السلطات البريطانية، والأحرار الدستوريين والمستقلين، المتمثلين في حكوماتهم، فإن الحكومة ظلت تحظى بكراهية القصر من ناحية، والوفد من ناحية أخرى.

انزوى الوفد إلى صفوف المعارضة منذ ديسمبر ١٩٣٧م، وخسر انتخابات إبريل ١٩٣٨م، وبينما كانت كل الأحزاب مدعومة من الملك فاروق، كانت أقصى غاية لها هي أن يظل الوفد بعيدًا عن السلطة، وكان الوفد يُحاول أن يجعل دوره القيادي بمثابة الممثل الحقيقي للوطنية المصرية، وقد ظهرت للنور نوايا الوفد في إبريل ١٩٤٠م عندما بعث بمذكرة إلى السير مايلز لامبسون يعترض فيها على إجراءات الطوارئ، مطالبًا بضمان؛ من أجل جلاء القوات الإنجليزية عن مصر بنهاية الحرب، وقبول اعتراف بريطانيا العظمى بوحدة شطري وادي النيل، مصر والسودان، تحت التاج المصري. وعلى الرغم من رفض المندوب السامي البريطاني لتلك المذكرة، فإن نشرها قد أعاد الوفد للواجهة كمتحدث رسمي وحامٍ للمصريين.

والآن نعود إلى دليل آخر، أصبح متاحًا، فالأهم من تلك الأمور، أن النحاس باشا كان أول الواصلين إلى دار المندوب السامي البريطاني في القاهرة في أوائل يونية ١٩٤١م، بعد عام من صدور تلك المذكرة؛ وذلك لكي يؤكد على وصوله للسلطة بمساندة الإنجليز. ومما يثير الدهشة أن الوسيط بين النحاس باشا والسفارة الإنجليزية كان أمين عثمان باشا، الذي كوفئ على خدماته لبريطانيا أثناء مفاوضات معاهدة عام ١٩٣٦م، وكان محل ثقة الإنجليز في مواقف عدة.

في إحدى المقابلات مع السيد (لاحقًا السير) سمارت W. Smart؛ سكرتير السفارة لشئون الشرق، نجد أن عثمان باشا، رافق النحاس باشا وسانده في آرائه عن شئون مصر الداخلية؛ حيث قدم النحاس ثلاثة مقترحات لأجل تحسين العلاقات المصرية الإنجليزية، والتي كانت كلها تنصرف إلى

قبول استقالة الحكومة وحل المجالس النيابية التي كان يُمثل الوفد فيها أقلية.

أما الحلول الثلاثة فهي:

– تشكيل مجلس وزراء وفدي بقيادته (النحاس باشا).

– تشكيل مجلس وزراء ائتلافي بقيادته (النحاس باشا).

– تشكيل مجلس وزراء غير حزبي بقيادة حسين سري باشا مع جبهته لتدعمه.

وتمادى أمين عثمان في تحذيره لبريطانيا؛ إما أن يعود الوفد إلى السلطة، أو أنه يؤكد إمكانية قيام مقاومة ضد الإنجليز من قبل الوفد، ولذلك فإنه اقترح تدخل الإنجليز لمساعدة النحاس باشا في تحقيق أهدافه، وقد ذكر أن الوفد مقتنع بأننا (دار المندوب السامي البريطاني في القاهرة) نعمل ما نشاء في مصر، وأي تدخل من قبلنا يصب في مصلحة الوفد.

ومن الواضح أن الوفد قد أمن اقترابه بخطوات حذرة، والتي تتبعها بواسطة غزو الألمان للبلقان في ربيع عام ١٩٤١م، وقد ارتبطت بالمشاعر المتنامية بين المصريين من الطبقة الحاكمة، والتي قويت بعد غزو ألمانيا لروسيا في يونية ١٩٤١م، والانتصار الألماني لم يكن أكثر من انتصار بريطاني، ولكنه كان الأقل من تلك الشرور. ومن كلمات لامبسون أن «الوفد استخدم الخطر الحالي لتسهيل عودتهم إلى الحكم».

وقد صرح لامبسون بأن الرغبة في تقوية حكومة حسين سري عن طريق مشاركة الوفد على الرغم من أن كلاً من لامبسون ورؤساء الحكومة البريطانية الذين استشاروهم كانوا على رأي واحد بأنه ليس من الرغبة ولا الحكمة لنا أن نتدخل في ذلك الحل، وأيضًا عدم تأكدنا من أن الحكومة الوفدية تُذعن لرأينا. لذلك الحل الأفضل هو تشجيع الأحزاب لأجل الوصول إلى اتفاق يُحقق الوحدة السياسية. وهذه الأمنية غير الواقعية كانت قد وصفت من قبل بعض موظفي مكاتب الأجانب بأنها رائعة.

ومن الواضح أن فكرة تدخل الإنجليز في شئون مصر السياسية الداخلية صدرت في يونية ١٩٤١م من قبل الوفد، وليست من السفارة البريطانية. وقد تسببت الأحداث التي وقعت بين يونية ١٩٤١م ويناير ١٩٤٢م في إحداث تغير كامل في مواقف بريطانيا. وقد تسبب إنذار ٤ فبراير في جعل لامبسون يُقدِّر أهمية تتبع التفكير الذي قدم كمذكرة سرية إلى إيدن كتبت بعد الأحداث.

وكان السبب الأول الذي أدى إلى الكارثة هو ضعف موقف حسين سري كرئيس للحكومة أمام القصر، وخلفه علي ماهر، الذي استطاع أن يُقنع الملك فاروق بذلك. وقد كان ولاء حسين سري لنا (بريطانيا العظمى) قد أدى إلى أن يخضع للاهتمامات البريطانية، ومع ضمان الدعم الكامل، كل التفاعلات ضد العناصر الإنجليزية داخل وخارج القصر، الوطنيين، والإخوان المسلمين، والأزهر، ومؤيدي علي ماهر باشا، تم تنظيمهم عبر الإدارة، واتحاد الطلبة في الجامعة، رتبت لتكون بمثابة حملات مستمرة ضد سري باشا كأداة للإنجليز. وهذا بدوره أضعف مركزه في البرلمان؛ حيث انتصر للأغلبية، لذلك كان عليه الاعتماد على دعم الأحزاب الأخرى، مع حزب السعديين والأحرار الدستوريين، والوفد، وكلٌّ منهم كان يُريد السلطة، وهو ما أدى إلى أن بات موقف حسين سري باشا صعبًا.

وقد أكد لامبسون على أن الوضع السياسي الداخلي كان يحمل أسباب سقوط سري باشا، والتي يُجملها في النقاط التالية: لم تكن هناك حكومة تحت سلطة النظام السابق راغبة في التعاون معنا، وتُبقي على دعم الملك، وبدونها وبغياب الظهير الشعبي، ولم تكن تستطيع التعامل مع البرلمان غير المنتخب، والذي على أساسه اعتمدت الحكومة. هناك العديد من المشكلات الداخلية أضيفت إلى صعوبات سري؛ منها ضعف حصاد المحصول في عام ١٩٤١م الذي كان سببًا في تقليل مساحة القطن المزروعة، وهدفها هو زيادة المساحة المزروعة بالحبوب. وأيضًا اتخذت التدابير لمنع الاحتكار والتخزين للحفاظ على سعر الحبوب. عدد من أعضاء البرلمان كانوا أصحاب أراضٍ، وكانوا متأثرين بتلك التدابير، وأصرّ سري على تلك الإجراءات، والتي بدورها أدت إلى أن باتت سياسته غير مقبولة، وأدت إلى ارتفاع المعيشة.

وفي الوضع الداخلي، اتهم لامبسون سري باشا بأنه كان سلميًّا مع مسببي الشغب في مصر؛ مثل الإخوان المسلمين. أيضًا هناك المشكلات المتعلقة بالرقابة التي تعود إلى إصرار لامبسون، والتي أدت إلى محاكمات برلمانية. والموقف غير الثابت وغير المقبول من الشعب من حكومة سري كان واضحًا ولا يلزمه برهان.

ولاستكمال الصورة فإنه يجب الاطلاع على الأحداث العسكرية والسياسية المحيطة بمصر؛ مثل قيام رشيد علي (الكيلاني) في العراق، والذي أدى إلى الشعور بعدم الراحة في مصر، طبقًا لأنور السادات الذي كان في ذلك الوقت ضد



الألمان مع عزيز علي المصري، وكانت إحدى الدعوات الأولى للتحرير في العالم العربي. ومع نكسة الإنجليز في ليبيا، ومع ازدياد التوقعات في نجاح الغزو الألماني لمصر، وفي دائرة العلاقات الخارجية، والتي تتعلق بأزمة فيشي Vichy والتي أدت إلى تأجيج التظاهرات السياسية ضد الحكومة والأباطرة الإنجليز، والتي حُرضت من قبل القصر من خلال علي ماهر، والشيخ مصطفى المراغي؛ شيخ الأزهر حتى وفاته في عام ١٩٤٥م، وهو من أكبر المحرضين لسياسة فاروق الإسلامية.

ونجد أن كارثة فيشي روجت من قبل الإنجليز أن مصر علّقت التواجد الدبلوماسي مع فيشي، وهذا الأمر كان قد تمّ تأخيره لعدة شهور؛ وذلك بسبب رفض فاروق الامتثال لرغبة الإنجليز. وأخيرًا عندما أراد سري باشا أن يتخذ خطوة في يناير ١٩٤٢م، قام بذلك بدون تعريف الملك فاروق، وكان ذلك بمخالفة الامتياز الملكي. وكان الملك يخشى المواجهة المباشرة مع السلطات البريطانية، التي امتنعت عن رفض حكومة سري، واختارت وزير الخارجية المصري ككبش فداء.

للاقتباس من إنذار لامبسون مرة أخرى: في هذه النقطة شعرت مُلزمًا بدخول الحدث، وكنت مُجبرًا أن أشير إلى أن سري باشا وحسنين باشا، لم يكونا مرغمين على تقديم التضحية بوزير الخارجية لتؤثر على القرار الذي اتخذه رئيس الوزراء وحكومته.

بناءً على ذلك فإن إقالة وزير الخارجية لم تكن مقبولة، لكن المواجهة المفتوحة بين حكومة سري والقصر، والتظاهرات الحاشدة، التي نُظمت ضده وضد السلطات البريطانية تحت شعار «يحيا روميل» وبالتالي لم يعد قادرًا على أن يستعيد ثقة ودعم البرلمان، وفي النهاية أجبر سري على تقديم استقالته إلى الملك في الأول من فبراير ١٩٤٢م.

وقرر لامبسون، بدعم من إيدن Eden، أن يتدخل، ويُجبر الملك فاروق عبر حسنين باشا أن الحل الأوحد للكارثة هو تشكيل حكومة تحت قيادة النحاس باشا، باعتباره ممثلًا لحزب الأغلبية في مصر. و لم ينجح الملك فاروق في إقناع النحاس باشا ليُشكِّل حكومة ائتلافية، ورفض مطلب لامبسون، وهو ما أدى إلى تدبير متطرف تم في الثلاثة أيام التالية، وأدى بالملك لأن يدعو النحاس باشا لتشكيل الحكومة الجديدة من اختياره وأن يواجه العواقب.

وفي هذه النقطة نرى أنه من المُستحسن النظر في العلاقات الشخصية بين السفير البريطاني والملك المصري، وهناك تشابه، وهو اللافت ما بين موقف لامبسون من فاروق، وموقف اللورد كرومر من السلطان الشاب عباس حلمي الثاني، منذ خمسين عامًا مضت. ونظر لامبسون للملك فاروق، ذي العشرين عامًا، والذي يصغره بأربعين عامًا، واعتبر أن ما قام به نوعًا من التبجح، وهو لا يزال قادرًا على المناورة، ولامبسون قادر على الاستقلالية.

في الساعة الثالثة ظهرًا، في نفس يوم الإنذار، التقى السير مايلز لامبسون بالملك فاروق في القصر بحضور ١٧ شخصية سياسية قيادية، ومنهم النحاس باشا، ليصل إلى توافق أن يُبقيه في السلطة مع عدم الالتزام بالأوامر البريطانية. وقد وصفت المقابلة ونتائجها من قبل أحد الحضور، وهو محمد حسنين هيكل، وقد وجه بدوره اللوم إلى النحاس باشا بسبب التدخل الإنجليزي ونتائجه. وفي رأيه أنه كان من الممكن تفادي هذا التدخل لو وافق النحاس باشا على تشكيل حكومة ائتلاف وطني بدلًا من حكومة وفدية فقط. وبعد صدور الإنذار أحس هيكل أن السفارة البريطانية كانت سترضى عن حكومة ائتلافية برئاسة النحاس باشا، لكن الأخير كان غير راغب في حل وسط، ورفض كل الحلول التي قُدمت من قبل الحضور.

تجاهل النحاس باشا للإنذار

وحافظ النحاس باشا على المنصب الذي أخذه في البداية، وقد تجاهل الإنذار، وأعلن أنه راغب في تشكيل حكومة إذا كان مكلفًا للقيام بذلك من الملك، مع العلم جيدًا أن هذا كله بمثابة خضوع من الملك للإنذار البريطاني.

وتمّ رفض ذلك من قبل القادة الآخرين، وهو ما أدى إلى نتيجة واحدة من هذا اللقاء، وهي قرار وقع من قبل كل الحاضرين من بينهم النحاس باشا، هو الاحتجاج ضد التدخل الإنجليزي في الشئون الداخلية المصرية، وإدانة تقويض السيادة والاستقلال المصريين. وعرض هذا القرار على السفارة البريطانية بأوامر ملكية في الساعة السادسة والربع مساءً، أي بعد إنذار لامبسون بحوالي خمسة عشرة دقيقة، وقد رآه لامبسون على أنه رفض للنصيحة، لكنه طلب مقابلة سريعة مع الملك. وحسب رواية لامبسون، في التاسعة مساءً وصل إلى القصر بصحبة الجنرال ستون؛ قائد القوات البريطانية في مصر ومجموعة مميزة من ضباط الجيش، خاصة قادة القوات المسلحة، وخلال انتظارنا سمعنا تحرك (قعقعة) الدبابات والسيارات المدرعة تأخذ مكانها حول القصر.

كان الاجتماع ما بين السير مايلز لامبسون والملك فاروق مُقتضبًا، ومن بين الحسابات التي كتبت أو قيلت عن مقابلة لامبسون كانت مقاربة للحقيقة، أولًا بسبب أنها كتبت بعد الحدث بواسطة واحد أو اثنين من المشاركين، وثانيًا أن هذا التقرير لا يُـمجد لامبسون بأية طريقة، ولكن بالأحـرى كان بمثابـة بيـان.

البيان شفوي من السير لامبسون

أعلم السير مايلز لامبسون الملك فاروق ببيان شفوي، يقول فيه «بوضوح، جلالتك غير مناسب للعرش». وبعد البيان، سلّم لامبسون الملك خطاب تنازله عن العرش، وطلب منه توقيعه في الحال، وإلا ستكون هناك مواجهات عسكرية. وقد صرح لامبسون أنه كان يُريد أن يتنازل فاروق عن العرش. وكان فاروق سيوقع التنازل لولا تدخل حسنين بكلمات باللغة العربية، ولم يفهمها لامبسون، وأشار إلى اقتراح استدعاء النحاس باشا ليُشكّل حكومة من اختياره، لم يُذكر من قبل السير مايلز لامبسون كبديل للتنازل عن العرش، ولكن الملك هو الذي اقترحه وقبله لامبسون على مضض. وكان لامبسون يُفكر بجدية في تنازل فاروق عن العرش، والذي اعتقد أنه كان هو المخرج، لكنه رأى أن من الحكمة، أن يسمح له بأن يُرسل في طلب النحاس باشا وأخيرًا وافق في السادسة مساءً، ونحن (الإنجليز) يجب أن نقبل بالحل، الحقيقة أن القبول تأخر ثلاث ساعات، وفيما يبدو أنه كان قرارًا صعبًا على الملك، وأعتقد أنه كان مُحقًّا في ذلك.

جعل هذا التصريح موقف لامبسون واضحًا، ويُساعد على فهم التفاصيل القليلة، والإصدارات القليلة التي ذكرت لسنوات عديدة لاحقًا بعد الأحداث من قبل اثنين من المشاركين؛ الملك فاروق، والجنرال ستيون. وعن صدق فإن السير مايلز لامبسون في تلك القضية، كان واضحًا في نهاية البيان عندما كتب: «كثير من الأحداث في تلك الليلة، التي أعترف أنني لا يُمكن أن أستمتع أكثر، وكان ذلك إلى حدٍّ ما وقحًا، حدث ذلك بعد المقابلة التي كان لامبسون يُفضل فيها تنازل فاروق عن العرش، وكان فخورًا بما حققه، وكان بطريقة ما يريد أن يصمت أو يُعيد كتابة أحداث هذا اليوم». وكان من المستغرب أن النحاس باشا قد هوجم بشدة من قبل القادة السياسيين المصريين بسبب دوره في تلك الأحداث، على الرغم من أنه من غير المرجح أنهم عرفوا أن النحـاس هو من أوائل من اقترحوا التدخل البريطاني. وتبعه خطـاب قـوي بمثابة احتجـاج من قبل أحمد ماهر؛ رئيس مجلس النواب.

وناشد النحاس باشا لامبسون تبادل رسائل تؤكد الالتزام البريطاني بشروط معاهدة ١٩٣٦م، والالتزام بعدم التدخل في الشئون المصرية الداخلية. وتؤكد الخطابات المتبادلة في ٥ فبراير أن النحاس باشا قد وافق على تشكيل حكومة بناءً على تكليف من الملك، وممارسته صلاحياته الدستورية مع عدم وجود أي تدخل خارجي في الشئون الداخلية للبلاد، خاصة تشكيل الوزارة وقبول استقالتها، أو إقالتها. وتلك الخطابات نشرت على النحو الواجب بقصد إعادة الاعتبار للنحاس باشا.

وتقدم أمين عثمان بداية من التقارب بين النحاس باشا ولامبسون بالنصح للسير لامبسون بتقليص المنصب الوزاري، وتعيينه كأمين عام لمجلس الوزراء، ليكون أكثر تأثيرًا، وأكثر فائدة لنا كظل قوي للنحاس باشا.

بعد بضعة أسابيع من تشكيل النحاس باشا للوزارة، أصدر الملك فاروق قرارًا ملكيًّا يقضي بتعيين أمين عثمان في منصب رئيس ديوان المحاسبة، والذي كان بمثابة وسيط الاتصال بين رئيس الوزراء والسفير البريطاني الملك فاروق، وحصل أمين عثمان تقديرًا لذلك على لقب فارس من ملكة بريطانيا، إلا أنه اغتيل في يناير ١٩٤٦م؛ ربما بسبب آرائه الموالية للإنجليز.

وكان لامبسون صريحًا جدًّا في نقطة أخرى، وهي الجهة المسئولة عن تشويه الحقيقة عن مقابلته التاريخية مع الملك فاروق: «تجنب مشاعر جلالتك، كنت قد وافقته طلبه أن تظل أعمالنا في تلك الليلة داخل الأربعة جدران، كان هناك تفاهم صارم من جانبنا وليس من جانبهم، وكان حديثًا ما بين المصريين بما فيهم الوفديين، بعد أن فرضت من قبل الحراب البريطانية، وهذا كان مُخالفًا للحقيقة. والدبابات البريطانية قد تدخلت لغرض آخر، والذي كان من ناحيتنا إخلاصًا لم يُكشف».

الأكثر وضوحًا في خطاب لامبسون في ١٢ مارس؛ حيث استعرض المشهد السياسي المصري، الجمهور كان كله ساخطًا، يُقال في قصة حقيقية أن الملك فاروق سيتمّ تذكره خاصة في سؤال المقابلة معه في ٤ فبراير، أن موضوع تنازله عن العرش سيظل سـرًا بين الأربعـة أفراد الذين حضـروا اللقـاء.

هناك تفاصيل هامة قد رأت النور بواسطة مصدر جديد، أولاً أن النحاس باشا وصل إلى السفارة ليضمن سلامة وصوله للحكم قبل إنذار ٤ فبراير. وثانيًا أن تحرك لامبسون في أحداث ذلك اليوم كان لتأمين تنازل فاروق عن العرش، وأن تكليف النحاس باشا بتشكيل الوزارة، كان حلاً وسطًا قبله الملك فاروق بناءً على نصيحة حسنين باشا.



مَبنى قَناةِ السوَيس

أيقونة مِعمارية تتَلألأُ في عمارةِ المدِينة البَاسِلة

طارق إبراهيم الحسيني

إذا تقرر أن الثغور مرآة تنعكس عليها صورة ما في البلاد من مدنيات في مرفقها ومعالمها، كان وجود مبنى القبة أو الدار البيضاء – كما أطلق عليه مؤرخ مدن القناة فؤاد فرج – ألزم ما يكون ليظهر الثغر في مظهره الأهلي اللائق به. وعليه جاء المبنى الإداري لشركة قناة السويس أحد أبرز العناوين بين منشآت مدينة بورسعيد، بل الأهم والأشهر بين المباني التي أقامتها الشركة العالمية لقناة السويس في مُدن القناة قاطبة. ويُمكن القول عنه إنه المبنى التاريخي الرئيس لمكاتب وإدارة شركة قناة السويس ببورسعيد؛ حيث كان وما زال يستخدم لمتابعة حركة السفن المارة بالقناة، ويشرف بشكل مباشر على الشاطئ الغربي للقناة في مواجهة للسفن العابرة للمجرى الملاحي ذهابًا وإيابًا عبر مجرى القناة، وما يمثله من دلالة رمزية لسيادة المؤسسة على المجرى الملاحي العالمي.

أُقيم هذا الصرح الشامخ ليكون المقر الرئيس للشركة العالمية لقناة السويس، ولقد جاءت فكرة بنائه نتيجة لمتطلبات عامة فرضتها ظروف العصر ومتغيراته الحديثة التي أملت على الشركة إدخال هذا النوع من المباني لزوم صياغة وتحديث الهيكل الإداري بها، والمبنى يواجه السفن والقادم من جهة الشمال كحِصْن معبر وكمدخل رئيس للثغر الوليد. وتبدو القوة المعمارية التي تنبع منه كان مردها إلى وضوح التكوين وحجم مقاييس البناء، والتي تَمكّن المعماري فيها من استنباط عدد من الأنماط المعمارية من منابع فكرية عالمية عديدة، إضافة لمفاهيم جمالية وتقنيات وأشكال إنشائية حديثة في مواءمة تامة لموقع مميز بامتداد مسطحات مياه محيطة به، فظهرت كوسيط يفصله عن بقية المنشآت المجاورة له فبدا وكأنه مبنى عائم على صفحة القناة.



من جهة أُخرى حاول المعماري أن يستغل بعض مفردات وعناصر العمارة الإسلامية المشرقية، التي جاءت على المبنى واضحة وصريحة؛ كالقباب يكسوها بلاطات القاشاني يعلوها أهلة تُشير الى مدخل القناة، والبائكة ذات العقود المخموسة التي تدور بواجهات المبنى للوصول إلى الطابع الشرقي المميز الذي أضفى على المبنى طابعًا من الفخامة والجمال.

ويبدو أن اختيار ميناء بورسعيد ليكون بها المقر الإداري الرئيس للشركة كان مرجعه وقوع الميناء على المدخل الشمالي للقناة إضافة إلى تطور الميناء بشكل سريع حتى غدا الممر الرئيس لتجارة العالم العابرة بين الشرق والغرب، وملتقى الأجناس البشرية من مشارق الأرض ومغاربها. فضلاً عن إعادة قناة السويس البحر المتوسط كمجرى رئيس للتجارة الدولية العابرة. وعليه جاء موقع البناء من أهم وأبرز عناصر التكوين، حين راعت الشركة حُسن الاختيار والمواءمة التامة لطبيعة عمله وتصميمه كأكبر منشأة إدارية لها في مُدن القناة، وبها المقر الرئيس للرئيس الأعلى للشركة العالمية بمصر. وفُضل الموقع لما يتمتع به من سمات عديدة تميزه عن غيره من مواقع الميناء، فجاء منفصلاً إلى حدٍّ ما عن ما سيكون في المستقبل من تكدس وازدحام، تحيطه المياه من ثلاث جهات عملت كوسيط يفصله عن بقية المنشآت المجاورة له.

الموقع

يقع المبنى في حي الشرق في نهاية شارع الجمهورية، السلطان عثمان سابقًا، وبداية شارع مصطفى كامل، واجهورن سابقًا، والمبنى مُحاط بالماء من ثلاث جهات، الواجهة الشرقية تُشرف على المجرى الملاحي للقناة فيما يُعرف بحوض إسماعيل، ومن الجهة الشمالية نجد حوض التجارة. أما الجهة الجنوبية فتشرف على حوض الترسانة وشريف. هذا ويتمتع الموقع بمميزات عمرانية وسياحية وثقافية هامة؛ ذلك لما يُحيطه من مبانٍ أثرية وتراثية وإطلالته على أحواض القناة، وإشرافه على المجرى الملاحي مدخل القناة الشمالي.

الإنشاء

شُرع في تشييد هذا الصرح بداية من عام ١٨٩٠م، وذلك عندما اتخذت الشركة العالمية لقناة السويس للملاحة البحرية القرار ببناء مبنى إداري جديد لها ببورسعيد عوضًا عن المبنى الخشبي القديم، وفي الموقع نفسه على الناصية الفاصلة بين حوض التجارة وحوض الترسانة في الجهة الغربية من القناة. وقد وقع اختيار الشركة على المعماري الباريسي شارل ماريت Charles Marette ليقوم بوضع الدراسات الخاصة بتصميم المبنى الجديد، وإثر قرار الشركة اتجه المعماري إلى مصر لدراسة



المبنى الخشبي القديم، الواجهة الشمالية المطلة على حوض التجارة.



وتصميم بعض المشروعات الإنشائية الخاصة بالشركة ومنها مدرسة للبنين في بورتوفيق بمدينة السويس، إلى جانب التصميم الخاص بالمبنى الإداري للشركة ببورسعيد خاصة بعد أن أصبح المبنى القديم غير كاف لاستيعاب الزيادة المطردة في أعداد الموظفين والذي بلغ مائة وستة عشر موظفًا فضلًا عن القائمين بالخدمات المعاونة لهم.

وفي الخامس عشر من شهر ديسمبر عام ١٨٩١م قَدم المعماري تشارلز مارتن ملفًا كاملاً بمشروعه لإقامة المبنى بما في ذلك جميع المخططات والمساقط والمواصفات الخاصة بأعمال البناء. وقد بدا المشروع من خلالها أنه سوف يُقام على مساحة ٢٢٣٠م٢، وهو يتكون من مبنى مركزي يمتد من الشمال إلى الجنوب، ويتكون من ثلاثة طوابق. يعلوه ثلاث قباب، القبة المركزية وهي الوسطى، وقبتان جانبيتان، قائمة على هياكل معدنية من الحديد من الداخل ويكسوها ويزخرفها من الخارج بلاطات خزفية، ويرتبط بالمبنى المركزي ومدمج به جناحان يمتدان من الشرق إلى الغرب على غرار المبنى المركزي إلا أنهما يتكونان من طابقين فقط. على جانب آخر فضلت الشركة التعاقد مع شركة مقاولات إدمون كوانيه للكتل الخرسانية Edmond Coignet Béton Aggloméré، للقيام بأعمال البناء في ٣ مارس ١٨٩١م دون طرح المشروع في مناقصة بين شركات المقاولات الفرنسية الأخرى، خاصة أن لهذه الشركة سابقة أعمال مع شركة قناة السويس في مدينة بورسعيد، حين قام مؤسس الشركة الأول فرانسوا كوانيه بوضع تصميم وتشييد فنار بورسعيد عام ١٨٦٩م بتقنية خرسانة كوانيه. وأثبتت التجارب السابقة جودتها وفاعليتها، وعليه فضلت استعمال نفس الكتل الخرسانية في بناء المبنى الإداري للشركة بنفس التقنية والنظام.

وعلى إثر حصول الشركة على التصميمات الخاصة بالمبنى من المعماري والاتفاق النهائي مع شركة المقاولات التي ستقوم بتنفيذ المشروع شُرع في التوقيع على عقد الأسعار والمواصفات في ٢٨ يوليو ١٨٩٢م، واتُّخذَت الخطوات نحو الشروع في بداية البناء في الأول من مايو ١٨٩٣م.

وعلى إثر وفاة المعماري تشارلز مارتن في إبريل ١٨٩٣م اقترح المقاول إدمون كوانيه Edmond Coignet على رئيس شركة القناة من خلال خطابه في ٨ يونية ١٨٩٣م والذي جاء فيه: «أعتقد أنه سيكون من الأفضل الاعتماد على الأسقف المصنوعة من الخرسانة المسلحة عوضًا عن الأسقف الخشبية أعلى العقود في الوجهات، لتحل محلها أسقف من الخرسانة المسلحة ببقية البناء من الداخل؛ نظرًا لقوة تحمل هذا النوع من الأسقف ومقوماتها الفائقة للحريق، فضلاً عما يتمتع به هذا النوع من الأسقف من القوة في دعم الجدران وبعض النقاط الهامة في المبنى. بالإضافة لتخفيف حمل وثقل القباب على الجدران والعقود الحاملة لها». ووافق بالفعل مجلس إدارة الشركة في اجتماعه في ٧ نوفمبر ١٨٩٣م بموجب عقد جديد على اقتراح كوانيه باستبدال الأسقف من الخشب إلى الخرسانة المسلحة.

وعلى الرغم من رحيل المهندس المعماري، فإن تصميم القباب لم يجرِ عليه التغير سواء في الهيكل المعدني الداخلي أو في التكسية بالبلاطات الخزفية، بالإضافة للألواح الخرسانية المصبوبة على الهيكل الحديدي للقباب. وقد استغرق البناء عامين بواسطة شركة مقاولات إدمون كوانيه وتحت إشراف كبير مهندسي الشركة، بالإضافة لعدد ضخم من البنائين المصريين والإيطاليين والفرنسيين وغيرهم من جنسيات أخرى. وفي الأول من مايو ١٨٩٥م تم تركيب وتوصيل جميع الخدمات المقدمة للمبنى، وبعدها بشهر من العام نفسه تم الانتهاء من جميع الأعمال، وتم تسليم المبنى للشركة في ٢٨ يوليو عام ١٨٩٥م، وإن ظل المبنى تحت الاختبار، والتسليم النهائي كان في عام ١٩٢٠م.

لم يطرأ على المبنى أي تغير جوهري حتى موعد التسليم النهائي، وإن كانت هناك بعض أعمال التطوير خاصة مع تأسيس شارة قيادة الميناء «الفانوس» أعلى القبة المركزية، بالإضافة لتثبيت المصاعد وإعادة ترتيب المكاتب، وكان العمل الأكثر وضوحًا قد تم في عام ١٩٤٩م عندما قررت الشركة تركيب شرفة زجاجية أسفل القبة المركزية حجبت منطقة الانتقال المثمنة الخارجية بالإضافة لكامل رقبة القبة؛ وذلك بغرض استحداث بعض المرافق الخدمية لإدارات أُخرى جديدة بالمبنى، وقد كلفت الشركة إحدى شركات المقاولات القاهرية V. Scerbo & co بتنفيذ المشروع. وبالفعل أسندت شركة المقاولات التصميم والتنفيذ لأحد مهندسيها؛ المهندس هنري روبى Henri Rauby.

أُلحِقَت بالمبنى استراحة لكبار الزوار نزل بها في عام ١٩١١م الخديوي عباس حلمي الثاني والملك جورج الخامس، كما اتخذه استكويل قائد القوات البريطانية أثناء العدوان الثلاثي على مدينة بورسعيد مقرًا له قبل أن يتم جلاؤهم عن مصر في ١٨ يونية ١٩٥٦م كآخر قاعدة لبريطانيا في منطقة القناة.

وقد تعاقب على إدارة الشركة العالمية لقناة السويس من هذا المقر خمسة رؤساء من الأجانب بداية من افتتاحه في عام ١٨٩٥م حتى تأميم القناة في ١٩٥٦م. لم يكن من

بينهم فرديناند ديليسبس صاحب التوقيع على المشروع، فجاء جول جيشارد (١٨٩٤–١٨٩٦م) أول من أدار الشركة من خلاله، ثم البرنس اوجست البريك (١٨٩٦–١٩١٣م)، ثم شارلز جونارت (١٩١٣–١٩٢٧م)، ثم لويس دي فوجيه (١٩٢٧–١٩٤٨م)، وكان آخرهم فرانسوا شارلز روكس (١٩٤٨–١٩٥٦م). ويأتي الدكتور حلمي محمد بهجت في المركز السادس كأول مصري ضمن قائمة مديري الشركة ورؤساء هيئة قناة السويس الذي تولى المنصب لمدة عام، من يوليو ١٩٥٦م إلى يوليو ١٩٥٧م.

الوصف المعماري

اتسم المظهر العام للمبنى بالتماثل والانسجام، واتبع في عمارته طُرق وأساليب النهضة الأوروبية الحديثة؛ إذ يتكون من طابق تحت مستوى الأرض (البدروم) وطابقين في جناحيه وثلاثة طوابق أعلى الطابق المرتد في ساق المبنى، يعلوها قبة مركزية وسطى وقبتان جانبيتان، وهي من السمات المعمارية التي ظهرت في العمارة البيزنطية، وتم إحياؤها في الطراز الكلاسيكي وطراز عصر النهضة الفرنسي المستحدث الباروك. كما جاءت القباب كإحدى الأشكال الخاصة بتغطية سقف المبنى، وتعدت الوظيفة فيما بعد لتصبح علمًا على المبنى الإداري لشركة قناة السويس بمدينة بورسعيد، وأصبح يُعرف بمبنى القبة. وجاء كل طابق من طوابقه مستوفىً للوازمه من القاعات المقسمة إلى مكاتب، ولكل مكتب استعمال خاص بإدارة معينة من إدارات الشركة، وهي مربعة أو مستطيلة لا تختلف إلا في المساحة والحجم، كما جاءت أرضية كل طابق في مستوى واحد مما جعل أرضية المكاتب مستوية، وبالتالي الأسقف مستوية ترتكز على جدران البناء. ويدخل الضوء الكافي للمكاتب وملحقاتها عبر نوافذ كبيرة متسعة خلف بائكة على محور عقودها مطلة على الخارج يغلق عليها درف تتبع نظام الشيش والزجاج، وجاءت السلالم الداخلية للمبنى متسعة ومنبسطة مريحة لا تتعب الصاعد.

وللمبنى أربع واجهات اتبعت قانونًا هندسيًّا صارمًا، وحظيت بالعناية التامة من حيث تقسيمها إلى مستويات أفقية ورأسية في اتساعها وارتفاعها بكرانيش بارزة نتج عنها بعض الظلال، وامتازت بالتماثل والتطابق بين أجزائها الواقعة على جانبي المدخلين الرئيسين، فجاءت منتظمة مستقيمة تتفاوت في طولها وتنظيمها المعماري والزخرفي. واتسم تخطيطها بالتماثل والتناظر؛ من حيث المداخل والأبواب والنوافذ المحورية.

ويتضح التماثل في الواجهتين الشرقية والغربية؛ حيث تتكون كل واجهة من قسم بارز، ثم قسم مرتد على جانبيه جناحان بارزان في الواجهة الغربية، كل جناح تتقدمه شرفة بها ثلاث نوافذ في طابقين؛ الدور الأرضي نافذتان مستطيلتان، يتوسطهما باب، والدور الأول ثلاث نوافذ معقودة بعقد مدبب ترتكز كلٌّ منها على فصين جانبيين، كذلك الحال بالواجهتين الشمالية والجنوبية؛ إذ تتماثل كلٌّ منهما والآخر تماثلاً تامًّا، وزاد في رونق الواجهات وبهائها عنصر البواكى، فامتازت كل واجهة ببائكة في الطابقين، بائكة من عقود مدببة مخموسة محمولة على دُعامات في الدور الأرضي، وفصوص في الدور الأول. كما خففت البوائك في واجهات المبنى من قوة وصرامة الأسلوب الإنشائي في الداخل. وأعطت الإحساس بوجود منطقة فاصلة بين داخل وخارج المبنى؛ وذلك بوجود تباين في التحميل الذي اتسم بالثقل في الداخل.

طريقة الإنشاء والتخطيط المعماري

شُيد المبنى بنظام الحوائط الحاملة Bearing Wall الذي كان سائدًا في تلك الفترة، وقد استخدم فيها مداميك من الحجر الصناعي (كتل الخرسانة) والطوب، ووضعت أساسات شريطية مستمرة أسفل الحوائط. وكانت تتم بتطهير الموقع من أي عوائق أو مخلفات، ثم تُحفر الأساسات وتفرش بالرديم المكون من حجر غشيم، ويدك بالماء ثم تبنى عليه الحوائط الحاملة.

أما عن التخطيط المعماري فقد جاء غير تقليدي؛ حيث بدا جديدًا ومعبرًا عن الاحتياجات التي تطلبتها طبيعة ووظيفة المبنى، وهو توفير أكبر عدد من المكاتب لاستيعاب أعداد الموظفين القائمين على إدارة الشركة وغرف وملحقات لأغراض أُخرى تخدم هذا العدد من العاملين، فظهر التخطيط متأثرًا إلى حدٍّ بعيد بتخطيط المباني العامة الأوروبية، التي تميزت في أغلب أشكالها المتنوعة بالتماثل والانتظام في مساقطها الأفقية وفي شكل واجهاتها. واختار المعماري للمبنى نمط التخطيط ذي الأجنحة أو الأذرع الممتدة، وهو واحد من التخطيطات العديدة التي ظهرت في عصر النهضة الأوروبية الواردة إلى مصر في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتميز في مبنى القبة حين جاء على شكل حرف «U» الإفرنجي العميق، تكوّن من مبنى مركزي مستطيل «ساق» في الوسط، يشكل المبنى الرئيس الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب يتصل به جناحان أو ذراعان يشكلان زاوية قائمة في طرفي المبنى الشمالي والجنوبي. وتشغل المساحة الكلية



المُشيد عليها المبنى ٢٥٦٢ م٢، وهو على شكل مستطيل منتظم الأبعاد له أربع واجهات تتخذ الإتجاهات الأصلية الأربعة، الواجهتان الشرقية والغربية طول كلٍ منهما ٨٤ م، والواجهتان الشمالية والجنوبية جناحا المبنى طول كلٍ منهما ٣٠,٥ م، وارتفاع كل واجهة من واجهات المبنى ٢٠ م، ويتكون المبنى من ثلاثة طوابق وبدروم يتم النزول إليه بواسطة سلالم درك في جناحيه، وطابق أرضي يتوصل إليه عن طريق سلالم وأبواب من الأربع جهات، وطابق أول يصعد إليه عن طريق سلمين رئيسين، واحد في كل جناح من جناحي المبنى، وآخر فرعى في الجناح الجنوبي. وامتازت الأجنحة بأنها مدمجة بالمبنى الرئيس السابق، كما اتخذ المسقط الأفقي طابع التطابق والتماثل المحوري في التخطيط والفراغات الداخلية لطابقي المبنى وجناحيه، وظهر المدخل كعنصر رئيس على محور تماثل التكوين على الواجهات الرئيسة للمبنى. واعتمد التصميم على شبكة تصميمية وحيدة الاتجاه من الشمال إلى الجنوب في ساق المبنى، ومن الشرق إلى الغرب في جناحيه واستُخدمت الممرات «الرواق» التي تحيط بكامل المبنى في طابقيه الأرضي والأول محورًا رئيسًا للحركة وفي الربط بين الفراغات المختلفة. وربما يعود استخدام هذا التخطيط للمساحة الواسعة التي شُيد عليها، كما أعطى هذا التخطيط للمبنى نوعًا من الفخامة والرسوخ.

جدير بالذكر أنه أُستخدم في البناء مواد وتقنيات حديثة تمثل صدًى لمدى التطور التقني والعلمي والصناعي الذي تم التوصل إليه في أوروبا منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي؛ مثل صناعة الحديد الزهر والمطاوع والخرسانة المسلحة والأسمنت، فقد شُيدت أسقف المبنى من الخرسانة المحصورة بين القضبان الحديدية، فلم تكن قد ظهرت بعد المشبكات الحديدية التي تستعمل الآن فيما يُعرف بالخرسانة المسلحة. كما استعمل المعمار في المبنى الأسمنت المستورد، وصنع منه بالإضافة للرمل والجير كتل الحجر الصناعي (خرسانة كوانيه) المادة الرئيسية في بناء الجدران والحوائط الحاملة. وكانت مادة جديدة غالية الثمن، و لم يكن بالبلاد مصانع لإنتاجها، وربما كان الأوروبيون يعتبرونها من أسرار بلادهم الصناعية. وجاءت القباب في المبنى كواحدة من أهم التطورات المعمارية والإنشائية الوافدة في تاريخ العمارة في مصر في العصر الحديث، حين ابتكر ونَوّع المعماري في التصميم والتشييد في بناء قبابه الثلاث، ومعه من تقنيات وابتكارات العصر، فشيد قبابًا خفيفة الوزن من الخرسانة تملأ فراغات الهيكل المعدني المصنوع من الحديد والمكون من عوارض ودعامات رأسية تطوقها دوائر معدنية على أبعاد متساوية مع دوران القبة وارتفاعها.

الطراز المعماري

من المسلم به أن النهضة الأوروبية بصفة عامة تدين في نشأتها بالكثير للثقافة والحضارة العربية الإسلامية؛ إذ كان العرب هم الذين واجهوا الأنظار إلى عظمة التراث الكلاسيكي القديم حين ضمنوا مؤلفاتهم كثيرًا من آراء علماء اليونان القدامى وأفكارهم ومبادئهم. وعندما ترجمت هذه المؤلفات إلى اللغة اللاتينية حفزت الأوروبيين للعمل على بعث التراث الكلاسيكي ودراسته في أصوله اليونانية واللاتينية الأولى. ومثلما كان للثقافة العربية الإسلامية دور في نشأة النهضة الأوروبية، كان للعمارة والفنون العربية الإسلامية أثر واضح على المعماريين والفنانين في عصر النهضة.

ويعد مبنى القبة واحدًا من أهم الأمثلة التى ظهرت بها تأثيرات طراز عمارة النهضة الأوروبية الحديثة، بصفة خاصة في فرنسا وبريطانيا سواء من حيث التخطيط والعناصر المعمارية أو الوحدات الزخرفية.

وقد ظهر طراز عصر النهضة المستحدث في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وانتقل إلى مصر بشكل سريع ليظهر في العمارة السكنية الحضارية بالإضافة لاستعماله في مجموعة مهمة من العمائر ذات النفع العام. كما يُعتبر طراز عصر النهضة المستحدث بأفرعه من أنسب الطُرز الأوروبية المستحدثة التي توافق مباني المنافع العامة على وجه العموم، ذلك أن هذا الطراز وأفرعه تتميز بتعدد أنواعها وأشكالها، بالإضافة لمرونته وإمكانية تكيفه ليلائم جميع الأغراض.

غلب على عمارة المبنى طراز عصر النهضة الفرنسي المستحدث، لنشأة المدينة منذ البداية على أيدي فرنسية، وكذلك المبنى حين وضع تصميمه وتخطيطه المهندس الفرنسي شارل ماريت، وقام على تشييده المقاول الفرنسي إدمون كونيه، وأشرفت على التنفيذ إدارة هيئة قناة السويس برئاسة فرديناند ديليسبس؛ لذلك جاء المبنى على نسق المباني العامة الفرنسية مثل مباني الطراز الإمبراطوري الثانى ذات طراز عصر النهضة المستحدث، ومباني الطراز الجمهوري الثالث التي شُيدت على نمط طراز النهضة والباروك الجديد؛ حيث شاع استخدام القباب في تغطية المنشآت المشيدة وفق هذا الطراز، وهو ما اعتمد عليه المعماري في تغطية المبنى بقبة مركزية وقبتين على الجانبين. كما يُمكن أن نستجلي بعض السمات الأخرى التي تمثلت في استخدام المساحات المستطيلة بقدر المستطاع، وهي التي تتناسب مع طبيعة استخدام المبنى، كما تميز هذا الطراز

بصفة عامة باستخدام الأسطح المستوية الخالية من التفاصيل فاتصفت بالرزانة والتقشف، فشابهت بذلك أعمال رجال الحركة الكلاسيكية الرومانسيكية التي اتصفت بقلة الزخارف واستعمال الأشكال الهندسية الواضحة كرد فعل أو تقليد للخلايا الباروكية. هذا إضافة إلى بعض سمات أُخرى اقتبسها المعماري من طُرز معمارية أُخرى كان أبرزها على المبنى الطراز الإسلامي المستحدث.

أخيرًا، يخضع المبنى حاليًّا لأعمال ترميم معماري وإعادة تأهيل؛ حيث يُعتبر أحد أبرز العلامات العمرانية التراثية المميزة لمدينة بورسعيد بوابة قناة السويس الشمالية، كما يُعد أول الأشياء التي تتبادر للذهن عند ذكر القناة واسم بورسعيد كأيقونة تتلألأ في الذاكرة والعيون تحمل كل تاريخ العابرين إلى هذه البقعة الساحرة من مصريين وفرنسيين ويونانيين وإنجليز وإيطاليين وكل أجناس البحر المتوسط.



المبنى الخشبي القديم، الواجهة الشرقية المطلة على القناة.



السلم الخشبي بالجناح الشمالي، الطابق الأرضي والطابق الأول.

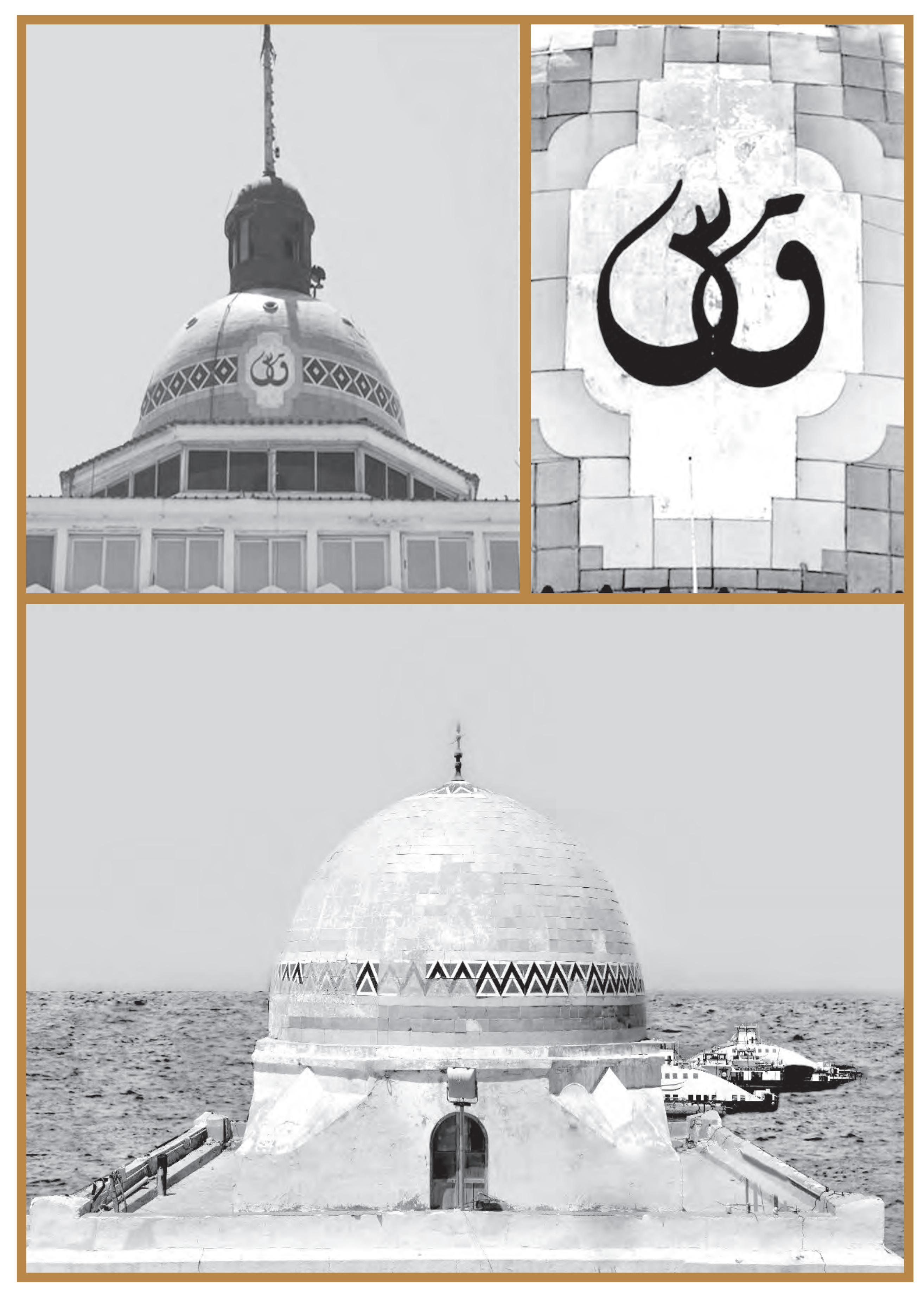




المدخل يتوسط القسم الأوسط من الواجهة الغربية.

الواجهة الشمالية المطلة على حوض التجارة.





منظر عام للقبة الوسطى من الواجهة الشرقية والواجهة الغربية، وشكل تفصيلي لشعار قناة السويس من الواجهة الغربية على إثر تعريبه بعد تأميم الشركة.



المبنى الخشبي القديم، الواجهة الشرقية المطلة على القناة.

منظر عام للمبنى عند الفراغ من بنائه، وإلى اليسار نجد اللوحة المدون عليها اسم شركة المقاولات آدمون كونيه للكتل الخرسانية.



منظور للقبة الوسطى، الواجهة الشرقية بعد إضافة الشرفة عام ١٩٤٩م، عمل طارق الحسيني.





قطاع رأسي للواجهة الجنوبية، عمل طارق الحسيني.

تفاصيل لتيجان الأعمدة الموجودة في المبنى.





المقاهي الثقافية في العالم



اسم الكتاب: المقاهي الثقافية في العالم

المؤلف: كامل رحومة

عرض: الدكتور خالد عزب

في مصر والعالم كان للمقاهي أدوار سياسية وثقافية وأدبية واجتماعية، لكننا لم نؤرخ لها الآن بصورة جيدة. كامل رحومة مثقف مصري يعيش في دمنهور أسس جمعية (عبدالوهاب المسيري لتنمية الفنون والآداب) من دمنهور. ألف كتابًا هامًّا بعنوان «المقاهي الثقافية.. القاهرة.. باريس.. دمنهور»؛ وهنا يفاجئنا المؤلف بأن هناك حراكًا ثقافيًّا قويًّا في مقاهي مصر خارج العاصمة. ومن هذه المقاهي:

مقهى نيو سوريا

بالسويس، لصاحبه ومؤسسه المثقف العصامي؛ يحيى محمود عارف، الشهير بابن بطوطة؛ لكثرة أسفاره، وهو صديق للعديد من رجال الفكر والثقافة في مصر، الذين كانوا يلبون دعوته دائمًا، ومنهم الأديب الكبير يحيى الطاهر عبد الله.

والمقهى يقع في قلب حي السويس منذ ١٩٧٨م، بجوار أشهر مساجد المدينة (مسجد الشهداء) الذي كان له دور كبير في المقاومة الشعبية في حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣م. يقع المقهى في محيط جغرافي يضم أهم المؤسسات الحكومية والتجارية بالسويس، وهو قريب من ميدان النافورة الذي شهد العديد من الأنشطة السياسية والثقافية. ويرتاد المقهى لفيف من رموز السويس الثقافية والفكرية؛ مثل الشاعر الكبير الكابتن غزالي مؤسس فرقة «ولاد الأرض»، والمثقف الموسوعي سيد نصير، والفنان التشكيلي الشهير الدكتور علي السويسي، ومؤرخ السويس المعروف حسين العشي صاحب كتاب «خفايا حصار السويس»، والروائي رضا صالح، والمترجم محمد أبو بكر النيفياوي، والشاعر والناقد صلاح نجم. وكان من الرواد شاعر العامية الراحل كامل عيد رمضان؛ مؤلف أغنية «باريس البحرية يا مصر» التي غناها المطرب محمد قنديل.

وللمقهى تاريخ عريق في المشاركة في الأحداث السياسية عبر العقود الماضية، فما بين احتفالية ثورة ٢٣ يوليو، ومناصرة القضية الفلسطينية في السبعينيات، إلى معارضة نظام مبارك وكذا المشاركة في ثورة ٢٥ يناير التي قال عنها صاحب المقهى (المعلم يحيى): «الواحد يقدر يموت وهو مطمن»، وقد صدقت أمنيته ووافته المنية بعدها بفترة وجيزة في شهر يونية ٢٠١١م.

مقهى السنديون

بفوه في كفر الشيخ، على الجانب الآخر من النهر لمحافظة البحيرة يتربع مقهى السنديون الأدبي على فرع النيل المؤدي إلى رشيد، وهو مقهى قريب من أهم حاضرة له – دمنهور– لقربها المكاني، مما كان له الأثر بالتأثر الثقافي من البيئة الثقافية الكبرى التي خلفها مقهى عبد المعطي المسيري.

مقهى القللي

بالفيوم، والمشهور بكونه ملتقى للفنانين والأدباء، وهو ما زال إلى الآن شاخصًا في مكانه. هو المقهى الذي قال فيه المرحوم الشاعر صلاح جاد سنة ٢٠٠٧م قصيدته «القللي» التي ينهيها بما يقول: «لعله الآن.. هناك في المقهى ينتظر عودتنا ليضحك.. ويحكي». والمقهى أول من دشن فكرة مسرح المقاهي التي



انتشرت في كثير من مقاهي المحروسة، ومن فرقها «فرقة المختبر المصري».

مقهى عبد اللاه قناوي

بالمنيا، وبدايته كانت في نهاية الستينيات من العقد المنفرط، وهو عبارة عن حديقة كثيفة الأشجار ويطل المقهى على أحد روافد نهر النيل (الخور)، وقد كان مكانًا أرستقراطيًّا في بدايته يتم فيه استقطاب كبار الموظفين من البحراوية المغضوب عليهم بنفيهم إلى مدينة قنا، وكانوا يسمونه آنذاك «كازينو». وعلى بعد خطوات من المقهى كانت توجد مكتبة صغيرة للغاية، اسمها «رباب»، كان يستأجرها شاعر شاب اسمه أمجد ريان، وكان يجتمع فيها أدباء جيله؛ مثل سيد عبد العاطي، وعطية حسن، وحمدي منصور، وغيرهم. وقد التحق بهم بعض الشباب وقتها، وأطلقوا على أنفسهم «جماعة رباب» كأول جمعية أدبية تظهر في الصعيد، وقد أصدرت مجلة تحمل نفس الاسم. كما تكونت في نفس المكان فيما بعد «جماعة أفراس الأدبية» المعتنية بالقراءة، وكانت مشروعًا ثقافيًّا، ظهرت آثاره في مجلة حملت نفس الاسم.

لكن المؤلف يفرد جانبًا هامًّا من كتابه لمقهى عبد المعطي المسيري بدمنهور، مركزًا على شهادة الدكتور عبد الوهاب المسيري عن هذا المقهى؛ إذ يقول: وظاهرة مقهى المسيري، ما كانت لتغيب على رجل مثل الدكتور عبد الوهاب المسيري أن يصوغ لها وصفًا ولو مختصرًا في سيرته الذاتية الأشهر «رحلتي الفكرية»، بصفته أهم معالم دمنهور الثقافية في إبان شبابه، وقد أسهم بصورة فعالة في ظهور كثير من المبدعين والمثقفين، بل والمجددين في القرن السابق، وكذا القرن الحالي. ولقد تحدث في سيرته «رحلتي الفكرية» عن الفعاليات بالمقهى، وعن المشاهير الذين التقى بهم هناك. ومما قال في ذلك: «ومن معالم دمنهور الأساسية – مقهى المسيري – لصاحبه الأستاذ عبد المعطي المسيري، ترددت عليه مرة أو مرتين قبل دخول الجامعة وجلست على هامش جماعة الشعراء والفنانين والقصاصين والمفكرين والمثقفين ومحبي الثقافة، وبعد دخولي الجامعة، أصبحت عضوًا أساسيًّا في تلك الجامعة التي كانت تلتقي في المقهى، في جو كله مودة ودون استقطابات أيديولوجية ودون خوف أو وجل من التجريب أو الخطأ؛ فالمرء أمام أصدقائه لا يدعي ولا يضطر إلى موازنة الأمور، بل يعبر عما بداخله في جرأة، وهو يعرف أن ما سيقوله سيقابل إما بالإعجاب وإما بالضحك والسخرية، وسخرية الأصدقاء، مفعمة بالحب (على عكس المؤتمرات العامة التي أصبحت فضاءات زمنية ومساحات مكانية تلقى فيها أوراق طويلة تسمى «بحوثًا» أعدت بعناية مسبقًا، توثق فيها أحيانًا البدهيات، أو يظل الباحث يوازن نفسه حتى لا يقول شيئًا! وهو يبذل قصارى جهده ألا يجرب وألا يخطئ وألا يترك ثغرة في بحثه قد يحاسب عليها. وهو عادةً ما يلقي بحثه أمام جمهرة من الأساتذة لا يعرفهم ولا يعرفونه وفي إطار جو من التربص العام.

إن أي مؤلف لا يكتب (للناس جميعًا) وإنما لمجموعة محددة من البشر. وكل كاتب – في تصوري – يحتاج إلى جماعة من القراء تتوافر فيهم عدة شروط: أن يكونوا مهتمين بالقضية التي يتناولها وأن يكونوا على مستوى فكري يمكنهم من الحكم على أعماله، فلا يكيلون المدح دون حساب أو مقياس، وألا يكونوا من الحاسدين الحاقدين. مثل هؤلاء يمكنهم توجيه النقد للمؤلف داخل إطار من الصداقة والتقبل المبدئي، فيعطيه قدرًا من الشرعية، فهذا يشد من أزره، والحوار الدافئ الذكي يولد في نفسه الثقة فيزداد الإبداع. ومن أطرف الأشياء أنني حينما كنت طالبًا في المدرسة الثانوية كنت كلما أرسلت خطابًا لإحدى الصحف، لأعبر عن إعجابي بشيء ما أو لأستنكر شيئًا ما، أُفاجأ بأن خطابي يجد طريقه إلى النشر، بل ويُعطى مكان الصدارة أحيانًا.

وكنت أحار لهذه الظاهرة، وكان زملائي في المدرسة يفسرونها بأن أسلوبي أدبي راقٍ، فكنت أصدقهم وترتفع معنوياتي وتزداد ثقتي بنفسي. إلى أن اكتشفت أن المسألة مجرد تشابه أسماء، وأن كثيرًا من محرري الصحف كان يظن أن عبد الوهاب المسيري من دمنهور هو عبد المعطي المسيري الأديب صاحب المقهى في نفس المدينة!

وكان بيننا شاعر العامية حامد الأطمس والشاعر فتحي سعيد (رحمهما الله)، كما تعرفت على محمد صدقي كاتب القصة وعبد القادر حميدة وغيرهما. كان المقهى هو بيت الثقافة في دمنهور. وكان أمين يوسف غراب يتردد عليه، وقيل لي إن يحيى حقي ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهما من المشاهير من أبناء البحيرة وممن عملوا فيها كانوا من رواد هذا المقهى الأدبي.

ولكن بعد قيام ثورة يوليو، تسارعت عملية التحديث التي تتسم بظهور الدولة المركزية القوية، فانتقل الأستاذ عبد المعطي المسيري وحامد الأطمس إلى القاهرة ليعملا في المجلس الأعلى للفنون والآداب (ومع هذا استمر المقهى، وما يزال – حسبما سمعت – منتدىً ثقافيًّا يتردد عليه المثقفون والفنانون). وللأسف مات الأستاذ عبد المعطي المسيري مشلولاً عن الحركة، مشغولاً بهول الحدث، ولذا اختفى الأستاذ عبد المعطي من الحياة الأدبية والعامة فجأة.

الكتاب الذي بين أيدينا عمل مرجعي مهم به كذلك ببليوجرافيا لأشهر مقاهي الوطن العربي لذا فهو يستحق أن يُقرأ.



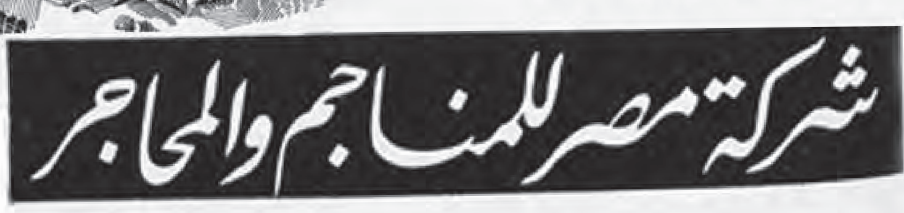
لماذا انت معجب بأرضية وحوائط تلك الغرفة ؟
هل سحرك انسجام اللون وهدوئه ؟



وهل أدهشك تناسق الألياف ولمعان الحوائط ؟
أم الذى بهرك توفر الجمال والمتانة فى مظهرها ؟

لا تفكر طويلا . . . . فلك أن تفخر من الآن فصاعداً إذا ما علمت أن الجمال ، والمتانة ، والانسجام ، واللون الهادىء ، والتعريق الفنى البديع – كل تلك المزايا التى سحرتك هى فى رخام بنك مصر المستخرج من محاجر مصر بالأهرام وبنى سويف . فلا تتردد فى تشجيعها ففى ذلك فائدة لك ، وتأدية واجب عليك

تليفون ٥٩٥٦٥




The Freedom of the Slaves of Egypt
March Piano
Composed by
Henry Weishoff
Pr. 50¢
PUBLISHED AT
MEYER LEVIN'S MUSIC STORE.
NEW YORK
176 DELANCEY ST.
Copyright 1902 by Meyer Levin.

الاشتراكات
عن سنة ٥٠ قرشاً صاغاً في مصر
والسودان و١٧ شلناً في الخارج
ولا يقبل الاشتراك عن مدة
اقل من سنة والدفع مقدماً

اللطائف المصورة

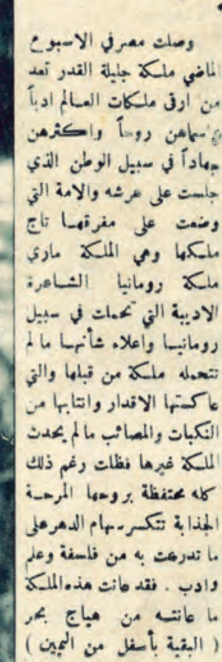
مركز ادارتها بباب اللوق بالقاهرة بلصق محطة حلوان — نمرة التلفون ٨١٨ بستان

AL LATAIF AL MUSAWARA
Proprietor ISKANDAR MAKARIUS
N. 786 VOL. XVI. CAIRO 31st February 1930

اللطائف المصورة
مجلة فكاهية ادبية علمية تاريخية
تنشر صور الحوادث الجارية ومشاهير
رجال العالم تصدر مرة في الاسبوع
لصاحبها اسكندر مكاريوس

العدد ٧٨٦ — السنة السادسة عشرة | القاهرة في يوم الاثنين ٣ مارس سنة ١٩٣٠ | ثمن النسخة ١٠ مليمات

جلالة ملكة رومانيا وكريمتها ضيفتا مصر



وصلت مصر في الاسبوع الماضي ملكة جليلة القدر تعد من ارق ملكات العالم ادباً وأسماهن روحاً واكثرهن جهاداً في سبيل الوطن الذي جلست على عرشه والامة التي وضعت على مفرقها تاج ملكها وهي الملكة ماري ملكة رومانيا الشاعرة الاديبة التي تحملت في سبيل رومانيا واعلاء شأنها ما لم تتحمله ملكة من قبلها والتي عاكستها الاقدار وانتابها من النكبات والمصائب ما لم يحدث لملكة غيرها فظلت رغم ذلك كله محتفظة بروحها المرحة الجذابة تتكسر سهام الدهر على ما تدرعت به من فلسفة وعلم وادب . فقد عانت هذه الملكة ما عانته من هياج بحر

(البقية بأسفل من اليمين)



الاميرة ايليانا الرومانية عمة جلالة ملك رومانيا الطفل « ميشيل » وصغرى كريمات المرحوم الملك فرديناند الاول والملكة ماري وعمرها ٢١ سنة وقد درست فني الملاحة والطيران والصورة تمثلها بملابس ضابط بحري

جلالة الملكة ماري ملكة رومانيا السابقة وهي كريمة البرنس الفرد نجل الملكة فكتوريا ودوق ساكس كوبرج وقد ولدت في ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٧٥ وهي شاعرة قديرة واديبة كبيرة اتخذت اسم « كارمن سلفيا » اسماً قلمياً لها كما فعلت اليصابات زوجة شارل اول ملوك رومانيا

(تابع المنشور اعلاه) السياسة الرومانية في حياة زوجها الملك فرديناند الاول التي كانت هي ملاكه الحارس ومرشده الامين ثم نكبت بحوادث نجلها وولي عهدها الامير كارول الغرامية المعروفة وتنازله عن ولاية العهد ثم بوفاة زوجها وما تلا ذلك من الاضطرابات السياسية في رومانيا والاختلافات الحزبية ثم اضطهادات البعض لها وكان آخر ذلك ماقيل عن الخلاف الناشب بينها وبين كنتها الاميرة هيلانه والدة حفيدها الملك ميشيل الطفل وارغام الاميرة هيلانة لها على ترك قصرها ثم الاختلاف بينها وبين الحكومة الرومانية على عضوية مجلس (البقية الى اليسار)

(تابع المنشور من اليمين) الوصاية على العرش فالاشاعات التي ثارت حول نجلها الثاني الامير نقولا وحوادث غرامه فحوادث كريمتها الاميرة ايليانا وما اشيع عنها فخطبتها الاخيرة ثم فسخها وامثال ذلك من المتاعب التي لولم تمتز الملكة فالادبية الشاعرة بسعة الصدر والفلسفة لناءت تحتها . وتعد جلالتها اكثر ملكات اوربا خبرة في العالم ومعرفة بأقطاره المختلفة فقد طافت جميع عواصم اوربا وزارت اميركا وكان قد اشيع في العام الماضي انها تنوي ان تزور مصر وفلسطين ثم اضطرتها احوال السياسة الرومانية الى ارجاء ذلك الى هذا العام وهي تزور مصر متنكرة على انها رغم ذلك قد لقيت من حسن وفادة جلالة الملك المعظم وحكومته ما يستحقه مقامها العظيم من الاجلال والتكريم وترافقها في زيارتها هذه كريمتها الصغرى الاميرة ايليانا . وقد سافرتا رأساً الى الوجه القبلي لزيارة الآثار المصرية الخالدة فيه وسيعودان في اواسط شهر مارس المقبل الى العاصمة وتسافران الى فلسطين وسوريا . رافقتهما السلامة في الحل والترحال

ضيفا مصر الكريمان اديب المانيا الكبير الهر توماس مان والسيدة عقيلته وقد وصلا مصر يوم ١٨ فبراير الماضي وتوجها الى الاقصر واصوان لمشاهدة آثارها والصورة تمثلهما عند نزولهما من الباخرة في ميناء الاسكندرية

مكتبة الإسكندرية

ذاكرة مصر – مجلة ربع سنوية – العدد الثاني والثلاثون – يناير ٢٠١٨ – تصدر عن مكتبة الإسكندرية